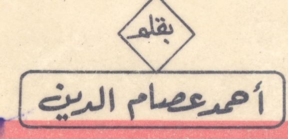
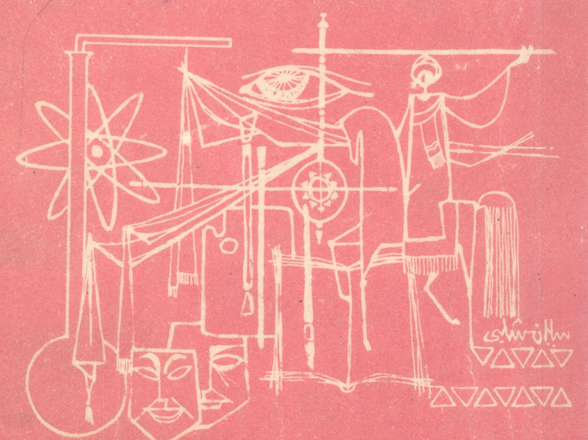
الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر

المكتبة الثقافية
العدد ٢٦٢

الثورة الفرنسية





المكتبة الثقافية
(جامعة حرة)
٢٦٢

الثورة الفرنسية

بقلم
أحمد عصام الدين

الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر
١٩٧١

كلمة تقديم

« ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم »

(قرآن كريم)

من أبرز حقائق التـاريخ أن لكل حدث فى الدنيا سببا يؤدى اليه ، ونتيجة تترتب عليه ؛ ويصدق هـذا القول على الثورة الفرنسية ، موضوع هذا الكتاب ، صدقه على غيرها من أحداث التاريخ . فأى سـبب أو أسـباب دعت الى قيام الثورة الفرنسية ، وأى نتيجة أو نتائج ترتبت عليها ؟ هذا هو موضوع تقديم الكتاب .

بيد أنه لا هذه ولا تلك ، أعنى الأسباب والنتائج ، يمكن القارىء العربى أن يدرك حقيقتها ويتبين مداها ، حتى ترتسم فى ذهنه صورة العصر الذى هبت فيه ريح الثورة ، فحين يسـتطيع القارىء أن يتبين ملامح العصر السياسية والاقتصـادية والاجتـماعية ، يستطيع أن يفهم الثورة بأسبابها ونتائجها على نحو يطمئن اليه .

حقبة ثورية :

يدل التاريخ على أنه كانت هنـاك حقبة ثورية فى نهاية القرن الثامن عشر ، على نحو ما كانت هنـــاك حقبة اصلاح دينى، بروتستانتى فى نهاية القرن السادس عشر،(١) فقد انتشر عدم الرضا حيال أنظمة الحكم وأحوال المجتمع، وكانت تتمـاثل الافكار التى انبثقت فى بلاد كثيرة تطلب تغييرا ، تطلعا الى حياة أفضل • وقد بلغ الاتفاق الفكرى فى هـــذا الاتجاه حدا لم يعـد يتعذر معه فهم لم كانت كلمات مثل « الارستقراطية » و « الاقطاع » لا تروق فى نظر الذين يطلبون نظاما جديدا ؛ على نحو ما كانت كلمات مثل « الحرية » و « القـــانون » و « سيادة الشـــعب » و «الحقوق الطبيعية» لها موقع طيب فى نفوس أهل ذلك الزمن • ولئن اختلف معنى هذه الكلمات فى فرنسا عنه فى غيرها من البلاد التى شـبت فيها نار الثـورة ؛ فلأن الثورة فى فرنسا وحدها أحدثت تغييرات اجتماعية أعمق كثيرا مما أحدثته فى أى بلد آخر • وأكثر من هذا ، فان فى فرنسا وحدها تم القضاء على أصحاب السلطة القدامى •

على أنه مهما يكن من شىء ، ومهما يقل عن ثورات تلك الحقبة التى امتدت ثلاثين عاما أتم بها القرن دورته ، تلك الثورات التى نجح بعضـــها وأخفق بعضها الآخر ؛ فان أوربا قد زلزلت من أعماقها اثر هذا المد الثورى الذى

(١) من مقال البروفسور ر • بالمر عميد كلية الآداب بجامعة واشنطن الامريكية ، عن القرن الثامن عشر والثورات فيه .

جرفت موجته الأرض شرقا الى روسيا ؛ وطوت المحيط غربا الى أمريكا .

الموقف في بلاد الثورات :

واذا نحن أردنا أن نرسم صورة الموقف فى كل بلد من البلاد التى تعرضت للثورة اذ ذاك ، فان القس الهولندى الشاب هوجن دروب ، ابن هذه الفترة ، يحمل عنا عبء ما نريد ؛ فقد كان يرى أن كل دولة أوربية اذ ذاك يقوم فيها حزبان ، أحدهما حزب «الدولة والكنيسة» وشرعة الحق عنده قائمة على أساس حق الملوك الالهى ؛ والآخر حزب « سيادة الشعب » ويرى أن ليس للحكومة سلطة الا ما كان مصدره الشعب ؛ وما قامت ثورة فى بلد ما الا مثل فيها الحزبان جانبى الصراع . وانما تتباين نتائج هذا الصراع وتتفاوت وفقا لقوة كل من الفريقين وتركيبه وتطوره وأهدافه وتخطيطه (١) .

الموقف الفرنسى :

ويرسم لنا البروفسور چورچ لفيفر ، المؤرخ المعروف، صورة الموقف الفرنسى ابان الثورة على نحو أوفق فيقول: «ان الثورة الفرنسية تمثل مقدم أربع حركات ثورية متمايزة معا ـ ثورة ارستقراطية وثورة بورجوازية وثورة فلاحين وثورة أهل المدن من موظفين وعمال محال ومن اليهم . وقد كان تلاقى هذه القوى الأربع هو الذى خلق

(١) المصدر السابق .

الثورة الكبرى . كما أن افتراق هذه القوى أو حلولها فى أوقات مختلفة هو الذى كان يعرقل سير الثورة أو يطيل أمدها .» (١)

ومن ثم فقد كانت الارستقراطية المتمردة تعاونها البرجوازية مؤقتا هى التى دعت لويس السادس عشر الى عقد مجلس طبقات الأمة عام ١٧٨٨ ، وكان الخلاف بين الأشراف والبرجوازية أو ان شئت فقل رفض البرجوازية قبول أهداف الثورة الارستقراطية هو الذى حول مجلس طبقات الأمة الى جمعية وطنية فى ٣ يونيو عام ١٧٨٩ . ولم يساعد الجمعية على البقاء غير ضمان البورجوازية لمطالب الفلاحين . وكانت ثورة صغار القوم من عمال المحال وموظفى مدن فرنسا هى التى قوت مركز الأحزاب المتقدمة فى الجمعية .. وصفوة القول ان كل طبقة كانت تختلف مع الأخرى فى نواح كثيرة ؛ ولكن عملها معا هو ما أخذ بيد الثورة فأنجحها الى درجة مكنتها من قطع طريق العودة الى النظام القديم .

وفى ضوء ما تقدم ، يمكن القول على وجه العموم بأنه لولا الثورة الارستقراطية لما كان مجلس طبقات الأمة ، ولولا ثورة البرجوازية لما كانت الجمعية الوطنية ، ولولا ثورة الفلاحين لما ألغى الاقطاع ؛ ولولا قلق الشعب لما قويت وقفة البلاد فى وجه رد الفعل ؛ ولولا المؤازرة الشعبيةمن

(١) من مقتطف للأستاذ بالمر فى مقاله الذى سبقت الاشارة اليه .

حضر فرنسا وريفها لما وجد جيش يقف فى وجه التحالف الدولى الاول ، على نحو ما تحكيه بالتفصيل صفحات هذا الكتاب ٠

أما فى بلدان أوربا الأخرى ، فلم يكن قيام الثورة يمضى على طول الخط ، بمعنى أنه لم يشمل الطبقات جميعا ، فكانت الثورة لا تكاد تشب نارها ، حتى تطفىء جذوتها قوة السلطان القائم ٠

ونتناول الآن أسباب الثورة الفرنسية ٠

أسباب الثورة فى فرنسا :

كانت للثورة الفرنسية نفس الأسباب التى دعت الى ثورات أخريات القرن الثامن عشر ، ومن هنا فهى أسباب عامة ، أما الأسباب الخاصة التى تفسر لنا لم كانت ثورة فرنسا أعنف ثورة وأبعدها دلالة ؛ فنرجىء الحديث فيها حتى نفرغ من حديث الأسباب العامة ٠

أسباب الثورة العامة :

من أسباب الثورة العامة التركيب الاجتماعى فى تلك الحقبة من حقب الانسانية ، فالنظام الاقطاعى أخذ يختفى تدريجيا ، بل هو لا وجود له آنذاك فى انجلترا وأمريكا ، وحتى فى شمال ايطاليا ٠ وطبقة البورجوازية تنمو وتسعى الى السلطان السياسى الذى ليس لها منه حتى الآن نصيب ، وهى تثرى دائما ، فهى تريد أن تجعل

من ثرائها قوة تبلغ بها الى ما تريد • وأصـــحاب الأراضى والفـــلاحون ذوو الملكيات البســيطة يعيشون حياة طيبه شــيئا ما ، ينعمون بحظ من تربية وثقـــفه تدفعهم الى محــاوله التخلص من بقايا نظام الاقطاع • كما أن زيادة السكان خلفت مشكلة ساعد على قيامها قلة عدد الوفيات بفضل التقدم الذي يحمل العصر طابعه • وقد كان لهذه الزيادة فى فرنسا وغيرها ، فيما يغلب على الظن ، فضل التحول الاقتصـــادى فى الغرب فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، الذى شاهد تقدما فى وسائل الزراعة وأساليبها ، بل وفى اختراعات سميت فيما بعد بـ «الثورة الصناعية » مما أدى الى الانقلاب الاجتماعى بوجه عام •

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فقد كان الفلاسفة الذين يوجهون أفكار العصر متأثرين بأعمال لوك وسبينوزا وديكارت ، على أن النتــائج التى خلصوا اليهـــا كانت تختلف اختلافا كبيرا من النواحى السياسية والاقتصادية والاجتماعية • ولا يغيب عن الذهن أن حركة التنوير ، بنت القرن ، قد ساعد على نموها قيام الجمعيات الفكرية فى تلك الأيام •

على أنه يصعب القول بقيام ثورة ما دون أن يكون هناك ما يحركها من قطاع السياسة • فقد زادت الضرائب بفعل زيادة حاجة الحكومات ، وحكومة فرنسا احداها ، الى المال من جراء حروب القرن الثامن عشر ، حتى امتد قانون جبــاية الضرائب الى الاشراف وهم المعفون من قبل

من أداء ضريبة ما • فكان كل من الفـــريقين ، الحـكام والأشراف ، يسعى الى عضد له من طبقة الفلاحين والعمال، وهم خطر قائم ماثل فى أوربا كلها وقتذاك •

هذه هى أسباب الثورة العامة ، وهى على نحو ما رأينا ، أسباب دعت الى قيام الثورة فى أكثر من بلد غير فرنسا ، فقد قامت فى فنلندا ، وفى بولندا ، وفى ايطاليا، وغيرها ، وفى هذه الأقطار كلها ، كان يسم الثـــورة هذا الطابع المشترك •

أسباب الثورة الخاصة :

تضافرت عوامل كثيرة فى فرنســـا خاصة على قيـــام الثورة فيها ، فقد تزايد السكان حتى لم يعد بوسع الحكومة أن توفر لهم الغذاء الكافى ؛ وقد حرمت السلطة السياسية على أبناء الطبقة البرجوازية الغنية المتكاثرة ، وكانت فى فرنســـا أكبر عددا منهـــا فى أى بلد آخر • وقد رغب الفــلاحون عن مســـاندة نظام الاقطاع الذى أخذت شمسه تغيب عن الوجود فى أقطار أوربية كثيرة فى تلك الأيام • وكان هناك اهتـــمام بالأعمال الفلسفية التى أخذ الناس يقرءونها فى فرنسا أكثر مما يقرؤها أهل أى بلد آخر ، مما تعكس صورته صفحات هذا الكتاب • وأخيرا ، كان اشتراك فرنسا فى ثورة التحرير الأمريكية يرهق ميزانية البلاد ارهاقا شديدا ، وقد ساقها الى ذلك سوقا شعبها الذى سبقهـــا الى مد العون الى الأمريكيين ، وكأنما ترهص

حركته بما يوشـك أن يقع فى فرنسا ذاتها بعد قليل . وتحضرنى هنا كلمات تاليران فى مذكراته(١) : « لم نكن نتحدث عن شيء سوى أمريكا » ، يرجع بهـا صدى سنى ما قبـل الثـورة الفرنسية . ولا عجب ، فقد أدهش الفرنسـيين ما خلق الأمريكيون من حكومات جديدة عن طريق التخطيط العقلى والتـدبير العملى ، تلك الحكومات التى قامت فى الولايات ، ثم هى تجتمع فى شـبه مؤتمر عام له سلطان أعلى فكأنهم ، أى الأمريكيين ، قد مثلوا لما أتت به فكرة « العقد الاجتـماعى » عنـد روسو وأقاموا الدليل على صحتها .

ونمضى الى حديث نتائج الثورة الفرنسية ، خاصة، وعامة .

لقد كانت للثـورة الفرنسية نتائجتكاد لا تحصى ، وانما نتناول بالكلام هنا منها تلك التى لا معدى لنا عن ذكرها .

نتائج الثورة الخاصة :

كانت أولى نتائج الثورة الفرنسية الغاء الملكية وقيام الجمهورية ، ومعنى هذا ، العمل بمبدأ «سيادة الشعب» فى حكم البـلاد ؛ وكذلك الغاء الاقطاع ، واعلان حقوق

(١) الجزء الاول من مذكرات تاليران Talleyrand : «Memoires» التى صـدرت ما بين عامى ١٩٥٣ ــ ١٩٥٥ .

الانسان ، وتنظيم الحياة السياسية على أساس دستورى جديد يكفل لأفراد الشعب الحرية والاخاء والمساواة أمام القانون ، وانبثاق الوعى السياسى وقيام الصحافة السياسية ، والأخذ بالنظام الانتخابى فى القضاء والادارة المحلية والكنيسة ، وازدهار الزراعة نتيجة للتشريعات الاجتماعية ، وانتعاش الاقتصاد الفرنسى ، وازدياد قوة الجيش الفرنسى الذى صار المثل الأعلى لجيوش العالم قاطبة ، فأخذت بنظامه وأساليبه دول كثيرة من بينها مصر (١) .

هذه ،فيما نرى ، أهم نتائج الثورة الفرنسية فى داخل فرنسا ، أما نتائجها خارج بلادها فكانت مختلفة متباينة على النحو التالى :

النتائج العامة للثورة

لعل أهم نتيجة عامة للثورة الفرنسية هى اعلان حقوق الانسان ، فهذا الاعلان لم يكن وقفا على الانسان الفرنسى وحده ، وانما امتد ليشمل كل انسان فى العالم ، فقد جعلت منه الثورة الفرنسية «نقطة بداية جديدة لآمال شعوب الأرض وأجناسها» ولئن ظلت تلك الوثيقة مدى ربع قرن أو يزيد بعد اعلانها ميثاق كل داعية الى الاصلاح فى أوربا ، فقد عادت تؤكده الأمم المتحدة ، بعد حربين عالميتين

(١) أنظر مدى تأثر الشرق العربى ومصر خاصة بالثور الفرنسية فى صفحات الكتاب الأخيرة .

لقى الجنس البشرى منهما شرا كبيرا ، فتنشىء لجنة خاصة بتلك الحقوق وقد أصدرت اعلانا بها ، وكأنها تزيح ركام السنين عن تراث شرعى وارته عن الأنظار أطماع البشر ، ومن نتائج الثورة العامة الاخرى أنها أدارت عجلة مذاهب الديموقراطية والقومية والاشتراكية(١) على نحو لم يعرف له مثيل من قبل ، وهى التى لما تخف حدة تيار بعضها الى الآن ، كما دفعت روح الحرية شعوب أوربا للانقضاض على نابليون ، ابن الثورة الفرنسية وقد أصبح امبراطورا . كذلك قضى انتشار أفكار الثورة فى أوربا تقريبا على النظام الذى كان يدعو الفلاح عن طريق المعاملة القاسية الى الدفاع عن البلد الذى يجوعه ، كما أدى الأخذ بتشريعات الثورة الاجتماعية فى كثير من الأقطار الى ازدهار الزراعة والاقتصاد بها ، على أنه لم يكن كل ما قالت به الثورة يحدث أثره فى البلاد الأخرى ، حتى مبادئها العامة ، وأعنى مبادىء الحرية والاخاء والمساواة ، فيذكر لنا المؤرخ ا٠جرانت فى كتابه «أوربا فى القرن التاسع عشر»، أن هذه المبادىء « لم تناسب العقل الألمانى ، وان دخل كثير مما ظهر فى فرنسا فى حياة ألمانيا العامة » .

ومن أبرز نتائج الثورة مولد فكرة الرأى العام على يديها ، فلعلها ، أعنى الفكرة ، وجدت لأول مرة بمعناها

---

(١) مما يتضح ويبرز فى ثورة روسيا عام ١٩١٧ وفى الفاشية والنازية بعد ذلك ..

الحالى ، أى كما نفهمها نحن أبناء القرن العشرين ، فى بعض دول أوربا • فقد بدأ النظر الى ما يجرى من أحداث على أنه شيء لا ينبغى أن يكون من شأن الحكومات وحدها بل ينبغى أن يكون من شأن الجميع • وقد أعان على هذا أن كانت السياسة تشغل الأذهان وقتذاك أكثر من غيرها ، ومن ذلك منافحة الأمريكيين عن الحرية والمساواة وغيرهما من المبادىء الانسانية النبيلة التى يهم أمرها الناس قاطبة • ويومىء تقدم الصحافة فى ذلك العهد وبعده الى الشيء ذاته ، فقد صدرت بين عامى ١٧٨٩ و ١٨٠٠ حوالى ١٣٥٠ صحيفة معظمها قصير الأجل ونتيجة أخرى أن أصبحت للطبقات الدنيا كلمة مسموعة فى بلادها ، وهى التى كانت قبل عام ١٧٨٩ لا خطر لها ، بل لا شأن لها • هذه الطبقات أخذت تلعب دورا حاسما فى تقرير الأحداث فى حقبة الثورة ، فى الثلاثين سنة الأخيرة من القرن الثامن عشر • وكلمتها لما يخرس صداها الى يومنا هذا فى توجيه مصائر بلادها •

واخيرا :

وفى ختام الكلام عن أسباب الثورة الفرنسية ونتائجها ، لا ينبغى لنا أن نغض من حقيقة لفت اليها

٠جودوين ،(١) فى كتابه الرائع «الثورة الفرنسية»، وهى حقيقة تتكون من شطرين ، الأول ، أن السبب الأصلى لقيام الثورة الفرنســـية والذى تتفرع عليه بقية الأسباب مما جرت به السطور السابقة ، يتمثل فى وجود «ارستقراطية متمردة» ، والآخر ، أن نتيجة الثورة الفرنسية التى ترتد اليها بقية النتائج جميعا مما سبق ذكره ، هى أن الثورة قـــد أبرزت تطور فكرة « سيادة الشعب » ، ذلك المثـــل الأعلى الذى كشفت الثورة كذلك عن متضمناته ، وبعبارة أخرى ، عن كل ما يمكن أن يبلغ اليه القائلون به فى كل ثورة تلى ٠

وبعد :

فالثورة الفرنسية قد كانت وبقيت للنهاية ، وتلك حقيقة لا تقبل الجدل ، «صراعا لا رحمة فيه ولا هوادة بين الارستقراطية والديموقراطية » ٠ ذلك الصراع الذى ترجع صداه كل ثورة قامت فى قديم الزمان ، وتقوم فى هذه الأيام التى لم يوار الزمن بعـــد عن أنظار أهلها « نظاما طبقيا » أدرك العقل السليم خطأه منذ زمن طويل ، وان ظننته صحيحا قلة ترى غير هذا الرأى ٠

---

(١) أ ٠ جودوين A. Goodwin استاذ التاريخ الحديث فى جامعة مانشستر ، فى كتابه «الثورة الفرنسية»
«The French Revolution»
فى سلسلة الكتب التاريخية التى تصدرها جامعة هاتشنسن ، ولعله احدث كتاب فى الموضوع ٠

الثورة الفرنسية ... بيضاء

((ان أســاس كل حكومة حرة هو عدم خضوع أى شعب لأى شعب آخر قانونا ، ولا لأى قانون عدا القانون الذى اختاره هو لنفسه ، والتمتع بالسيادة التامة فى بلاده والاستقلال التام من أية سلطة بشرية مفروضة عليه))

(مارا)

يروى لنا التــاريخ أن لويس الســادس عشر آخر ملوك فرنسا الذين تولوا الحكم فى ظل النظام القديم ، ارتقى الى العرش عام ١٧٧٤ م ، وأعدم ولما يمض عليه عشرون عاما بعدها ، ويشكل هذا الحدث ، اعدام الملك ، خطرا على نظرتنا السليمة الى الســـــنوات الخمس عشرة الأولى من حكمه ، فقد نظن أن فرنسا بما فعلت ، قد وجهت اليها اهتمام أوربا كلها ، تريد أن تصرفها عن نظام حكم لاخير فيه ، وأن الجو كان مفعما بعناصر العاصفة القادمة ٠ ولكن الواقع كان يغاير هــذا الظن تمــاما ، فقــد كانت الشخصية الاولى فى أوربا وقتئذ هى فردريك الأكبر ملك

بروسيا ، وكان بلده يمرح في ظـل السمعة الكبيرة التى جلبها له خوض غمار حروب قد وضعت أوزارها منذ قليل· كان النظام فيها ، في بروسيا نظاما أوتوقراطيا أمينا في عنف ، فعـالا كغيره من الأنظمة التى لا تعترف بضرورة الحرية ، وان كان لم يجهز عليهـا ، مما كان يومىء اليه الأفق الذى كان يتراحب امام آمال العصر الجـديدة على نحو ما ترسم صورتها الأفكار الجديدة : فهذا فوليتر ينعم منذ طويل بالاقامة فى قصر فردريك الأكبر فى بوتسدام، بينما يدفع الفكر الفرنسى عجلة الحياة العقلية فى ألمانيا مما نرى آثاره فى أعمـال جوته وشيلر وغيرهما من أقطاب الفكر والأدب فى ألمانيا ذلك الزمن ·

أيام حكم لويس الاولى

وبدا فى فرنسا أن الحكم الجديد يبشر ببداية عهد طيب ، خير من سابقه ، فقـد تنفس الناس الصعداء مع نهـاية حكم لويس الخـامس عشر ، وعم الارتياح معظم الطبقات ، لا سيما وأن امتيازات بلاطه لم تكن تعززها أية انتصارات خارجية · ومع أن فرنسا كانت دولة ذات نفوذ عن طريق كتابات أصحاب العقول فيهـا ، فانه لا البلاط الفرنسى ولا الحكومة الفرنسـية ، كانت تفيد منها فى شىء ، فقد كان الفـكر الفرنسى الذى كان يشد أزر سلفه الكبير لويس الرابع عشر لا يأتلف مع نظام الحكم فى ظل

لويس الخـــامس عشر • اذن ، فقد رحب الناس بمقدم الملك الجديد ، الملك لويس السادس عشر ، لأنهم رأوا فيه لونا من التغيير ، تطمئن اليه نفوسهم ، ولقى شخص الملك ذاته من جانبهم كل حب وتقـدير واحترام • فقد كان لويس السادس عشر ، يفيض قلبه بحب الانسانية التى سادت نزعتها أيام حكمه الاولى ، وارتسمت آمالها فى أفق حياة البلاد فى تلك الفترة من تاريخها ، وهى نزعة وآمال أبدى صاحبنا استعداده للأخذ بيدها ونصرتها عن طريق تغيير نظام الحكم ، فقد كانت سنته فى أيام حكمه الاولى ، بل وديدنه فى ساعاته الأخيرة ، واحدة لا تتغير ، تلك أنه ملك يحب شعبه • وكانت زوجه ،مارى انطوانيت ، وهى أميرة نمســوية ، امرأة طيبة القلب لامعة الذهن جميلة الخلقة حقا • الا أن أصلها النمسوى جر الوبال عليها وعلى زوجها ، فقد غضب الشعب عليها حين عادت فرنســا الى العداء مع النمســا ، فكان الشعب يدعوها دائما « المرأة النمسوية » ، كما أفقدها أصلها الأجنبى من ناحية أخرى القدرة على العطف التام على الأفكار الجديدة الســـائدة وقتذاك ، فكانت ارادتها التى فاقت ارادة زوجها قوة ، مصدر الوحى فى كل نصح تسديه الى الملك فى ساعات محنته ، وما أشــد خطر مثــل هذا النصح فى الأوقات العصيبة !

بيد أن هذا كله انما يتعلق فى الواقع بمرحلة ثالثة من مراحل حياة حاكم فرنسا التعس ، ومن ثم فلا ينال شيئا من اهتمامنا هنا •

لما تولى لويس السادس عشر الحكم ، بدأت فرنسا تدخل في طور جديد من حياتها ، فقد اتصل الجهد المخلص الأمين فى ظل الملكية • القائمة ، وان لم يستطع شىء أن يوارى عن أنظارنا عدم رغبة أحد فى التمسك بالنظام القديم ، لسبب بسيط فى الغاية ، هو أنه لم يكن يؤدى دوره فى الحياة • فقد كسدت التجارة ، وانحطت الصناعة، فلم تستطع فرنسا اللحاق بانجلترا فى تقدمها المستمر • كانت أرض فرنسا غنية تؤتى أكلها طيبا كثيرا ، ولكن نظام الامتيازات ، الذى أعفى طبقة الاشراف ورجال الدين وأهل الصلة بالبلاط من قدر كبير من الضرائب التى ينبغى سدادها ، أفقد الحكومة القدرة على مواجهة التزاماتها ، ومن ثم فلم يكن بد من أن تقوم ثورة ، أو شىء من ثورة فى فرنسا • فاذا كانت الثورة قد جاءت اليها آخر الأمر ، فانما دعت اليها حاجة الدولة الى المال ، فقد أدت نفقات الحروب الكبيرة فى القرن الثامن عشر الى اضطراب المركز المالى للبلاد اضطرابا ذهب بأمل القوم فى استقرار قريب أو بعيد • وكانت أول حاجة واجهها المسئولون ، موازنة الدخل بالمنصرف ، وهى حاجة يمكن سدها فيما كان يقول رجال الاقتصاد عن طريق تغيير فى أساليب الحكم الفرنسى •

وفي أول وزارة تولت الحكم فى عهد لويس لسادس عشر ، كان موريبا يشغل منصب رئيس الوزارة ،

ولكن ترجو ، وزير المالية فيها ، كان أبرز شخصياتها ، فقـــد سبقت كتاباته الوزارة فى تعريف الناس به • لم يمكث ترجو فى الوزارة أكثر من عشرين شهرا ، ولكن الناس ظلوا يلتفتون دائمـــا ، اذا هم التفتوا الى الوراء أبدا ، الى هذه الفترة من حياة الوزارة الفرنسية ، على أنها الوقت الوحيد الذى كانت تســـنح فيه فرصة الاصـــلاح الحكيم الرزين الذى يفوت الحاجة الى الثورة • كان ترجو يريد ادخال عنصرى الأمانة والفعالية فى كيان الخدمة العامة ـ وهذه ثورة حقا • فقد كان يريد أن يحد بل يبطل ســـلطان الكنيســـة الذى أخذت خطورته تتزايد ، وأن يدخل نظاما ضريبيا أعدل من سابقه ، وأن يثبت حرية التجارة فى داخل البلاد وخارجها • حقيقة لم يكن الرجل يأخذ بضرورة اشراك الشعب فى ادارة البلاد عن طريق عقد جمعية وطنية أو ما اليها ، على كثرة ما لفت نظره الى حسن مثل هذا الاجراء ، ولكن حقيقة أيضا ، أنه كان يعمل فى كل ما يصدر عنه ونصب عينيه الانسانية والعدالة ولا شىء ســـواهما • ومهما يكن من شىء فقد أثارت مقترحاته الاستياء الشديد من جانب الطبقات التى هددت مصالحها • ولم تلبث مؤامرة البلاط التى أخذت مارى انطوانيت فيها بنصيب ، أن نجحت فى عزل الوزير الكبير ، واحلال نكر محله • كان نكر من أرباب الأمـــوال فى جنيف ، وكان بروتستانتيا ، ومن ثم فقد أثار تعيينه بعض الصعاب التى ذللها ســـلطان الملك الذى خفت مهمته كثيرا حين تنازل

الوزير الجديد عن مرتبه للدولة · ظل نكر حتى عام ١٧٩٠ موضع حب الشعب واكباره ، بل لعله كان أحب شخصية عامة اذ ذاك الى نفوس النـاس ، وسـاعده على ذلك عدم أنانيته وأمانته وايمانه بأنه يمثل آمال الشعب فى هذه الفترة من تاريخ حياته ، وفى النهاية صلته بطبقه رجال الفكر والأدب ، غير أن الحقيقة هى أنه كان رجل مال عظيم ولم يكن رجل دولة عظيما · لقد قبل نظام فرنسا المالى والادارى كمـا وجده ، وأمل أن يمكن الحكومـة ، بغير احداث تغيير جذرى من أن تسـير فى عملهـا عن طريق الاقتصاد والقروض التى سـاعدته سـمعته المالية الطيبة فضلا عن علمه وخبرته الشخصية بشئون المال ، على عقدها بفائدة تقل كثيرا عن الفائدة العادية · بيد أن هذه الجهود لم تخلف أثرا كبيرا باقيا فى تاريخ فرنسا · ويضيق المقام هنا عن المضى فى حديث نكر والاقتصاد الفرنسى ، فنحن نكتفي بما ذكرنا مما يتسق وسير موضوع الكتاب · فقد حدث على ضفة الأطلنطى الأخرى أثناء تولى نكر وزارة المالية الفرنسية ، حدث كبير كان له أثره البعيد فى الشئون الأوربية · فقد أخذ التوتر السائد فى العلاقات بين الحكومة البريطـانية وبعض المسـتعمرات الامريكية ، يـزداد خطرا حتى انفجر الموقف فثارت المستعمرات علانية على النفوذ البريطانى ، ويذكر العـارف بالتـارخ جيـدا أن فرنسا وانجلترا كانتا تناصب كل منهما الأخرى العداء طيلة القرن الثامن عشر ، الذى تمخضت حروبه بينهما عن

فقد فرنســا مستعمراتها وممتلكاتها فى الهند وغيرها ٠ وبدت ذكــرى هزائم تلك الحروب الأليمة تهيىء لفرنسا فرصة الأخذ بالثأر فى هذا النزاع الامريكى البريطانى ٠

فرنسا والحرب الأمريكية :

ترددت الحكومــة بادىء الأمــر ، فقد كانت تخشى تكاليف الحرب الباهظة ، وتعمل حســابا لقوة عدوها البحرية ٠ ولكن الشــعب لم ينتظر حتى تلعب الحكومة دورها ، فاذا لافاييت الذى فاض قلبه بالمشاركة الوجدانية تجاه القضية الأمريكية يعبر المحيط مع فرقة من المتطوعين من أبناء جلدته الى أمريكا فى ١٩ أغســطس عام ١٧٩٠ ٠ ولم ينس الأمريكيون أبــدا هــذه المغــامرة الكريمة التى مازالت تشد ذكراها أمريكا دائما الى جانب فرنسا ، فقد أرغم الرأى العــام الفرنسى حكومتــه على تعضيد حركه لافاييت بالعمل الرســمى ٠ وما أعقب ذلك من أحداث يكاد يجاوز المدى فى أهميته بالنسبة للعالم عامة ، وللثورة الفرنسية خاصة ٠ فقد اسهم العون الفرنسى فى انتصار القضية الأمريكية فى صورة حاسمة اذ اشتركت كثرة من القوى الأوربية فى الاحتجاج على سيادة بريطانيا البحرية٠ وهزم الأسـطول الفرنسى الأســطول البريطانى خارج المياه الأمريكية فخضعت مدينة يورك ، ونشأ عالم جديد

بالفعل . وكان فى كفاح فرنسا البعيد شيء خلف انطباعته العميقة فى أذهان الفرنسـيين ، فقـد غلب جيش من الوطنيين جيشا مرتزقا للانجليز ، وكان الدستور الأمريكى فى طريقه الى النور . بدأ هذا الدستور باعلان الاستقلال الذى يرجع صدى أفكار روسو ، وتم تشييد صرحه وفق رسالة مونتسكيو الشهيرة : « روح القوانين . » أما دين الدسـتور الأكبر للدستور الانجليزى ، فقد بقى بطبيعة الحال فى خلفيته . فالحرية التى كتبت عنها فرنسا وحلمت بها دهرا طويلا ، قـد أنمت نبتها وأورقت وأزهرت ثم أينعت فيما وراء الأطلنطى . وقوى الاعتقـاد بأن أرض فرنسـا لن يمضى وقت طويل حتى تترعرع فى تربتها شجرة الحياة الحرة النضرة الطيبة .

ولكن الحرب الأمريكية كان لهـا أثر سـيىء بالغ السـوء من جهة أخرى ، فقد أبهظت النفقـات الخزانة الفرنسية ، ولم تعد اجراءات نكر الاقتصـادية الحريصة قادرة على مواجهة نفقـات الحرب طويلا ، وما هى الا أن أصدر الوزير بيانه عن الحالة المـالية فى البلاد . ومهما يقل عن عدم دقة هذا البيان أو عدم سلامة الدوافع التى حدت بصـاحبه الى اصداره ، فان نكر كان يقصد به الى الرأى العـام ، والرأى العـام وحده ، بعيدا عن دوائر المال . وكان لنكر ما أراد ، فقد أخذت تتسع دائرة قراءة البيـان ومناقشته ، ولم تلبث دوائر البلاط أن أدركت خطره عليها ، فأسرعت تعزل نكر من منصبه عام ١٧٨١ ،

ولكن لتعود بالبلاد فى الوقت ذاته الى نقطة بداية الخطر ، وتضع أصبعها على زناد الثورة ٠

الطريق الى الثورة :

الا أن بين هذه الفترة الحرجة وقيام الثورة بالفعل ثمانية أعوام ، لم يكن يستحيل على الحكومة خلالها اجراء ما من شأنه أن يجنب البلاد خطر الثورة ودمارها القادمين على طريق الأيام ٠ فلم تكن ثروة البلاد قد نضب معينها ، ولم يكن هناك مايبعث على الظن بأن فرنسا تشكو من فقر أو حاجة لا مثيل لهما فى غيرها من البلاد الأوربية ٠ ولم يكن نظام الملكية نظاما عفا عليه الزمن في رأى الناس ، فقد كان يلقى تأييدا في شخص الملك ذاته من معظم الشعب ٠٠ غاية ما فى الأمر أن الارادة الحديدية التى تكفل وحدها سير أداة الحكم فى طريق تحقيق الغايات القومية ، تلك الارادة لم يكن لها وجود فى الجالس على عرش فرنسا ٠ ومن هنـا كانت التهمة التى درج بعض المؤرخين على توجيهها الى لويس السادس عشر من أنه قاوم الثورة فترة من الزمن أطول مما كان ينبغى له ، فجلب بذلك على نفسه الوبال ، ومهد الطريق الى مأساة خاتمة حيـاته على نحو ما يعرف الجميع ؛ كانت هذه التهمة باطلة من أساسها ، اذ كانت تناقض الحقيقـة والواقع ؛ فان بلوى لويس ، لم تكن صلابته وعدم مرونته، وانما كانت ضعف ارادته ، فهو لم يكسر وانما عصر ، على نحو ماسيعرف القارىء تفاصيله بعد قليل ٠

احياء تقليد قديم :

تولى كالون وزارة المـالية بين عامى ١٧٨١ ، ١٧٨٧ وكان أول أمره محل عطف البلاط الذى لم يتدخل الوزير فى شئون نفقاته ، بل كان يرى أن البلاط الذى يسرف ييسر الاقتراض ، فعاش طويلا عن طريق الاقتراض بفوائد كبيرة، غير أنه استطاع أن يرى أخيرا أن الملكية لم يعد بوسعها حل المشكلة المالية عن غير طريق اشراك الشعب معها فى الأمر٠ ومن ثم فقد عاد الى تقاليد الملكية فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ، ودعا الى الاجتماع « مجلس طبقات الأمة » ، الذى كان يمثل الأشراف ورجال الدين والشعب ٠

ولم يحدث من قبل أن اجتمعت هذه الهيئة فى فرنسا من أجل أمر جليل أو غيره منذ عام ١٦١٤ ، ومن ثم فدور هذه الهيئة انما كان مما يعنى الباحث والمؤرخ وحدهما ، ويروى التاريخ أن هذه الهيئة قد تبدد شملها وزال وجودها منـذ خلافهـا مع الملـكية أيام ريشيليو الذى انتصر للأخيرة ٠ ومهما يكن من شىء ، فقد كان هذا ، وأعنى دعوة هـــذه الهيئة اجراء يروق للناس فى فرنسا ذلك الوقت ، فقـد كانوا يتوقون الى التمثيل النيابى ويتحرقون شـــوقا الى الانتخابات ، ومع هذا ، فلم تكن هذه الهيئة قادرة على علاج الموقف الطارىء فى فرنسا ٠ ولم ؟ لأن الهيئة فى صورتها المـاثلة مؤلفة من ثلاثة أطراف هى الـكنيسـة والاشراف

والشعب ، ومن هؤلاء تتماثل مصالح الطرفين الاولين ، ومن ثم فـلا قيمة للتصـويت على أى موضـوع • ثم ان ممثلى الشعب لم يكن يزيد دورهم عن عـــرض المقترحات وتقديم الظلامات « كراسات الشكاوى » المعروفة الى الملك ، وشتان بين هذه الهيئة وبين البرلمان البريطانى المعاصر لهـا ، ثم بينهـا وبين الجمعية الفرنسية التى لم تلبث أن قدر لها توجيه مصائر الشعب الفرنسى •

وزارة بريين وفشلها :

سقط كالون عام ١٧٨٧ ، وتبعه الكردينال دى بريين وهو آخر الكرادلة الذين استخدمتهم الملكية الفرنسية فى حكم البلاد • اتبع الكردينال سبيلا يؤدى بالبلاد الى طريق الأمان والسلام ، فاقترح اســتخدام نفوذ الملك فى فرض الضرائب على طبقات أصحاب الامتيازات ، ولكن حال دون ذلك «برلمان باريس» ، فقـد كانت مهمته تسجيل القوانين التى يصـــدرها الملك ، ولم يكن يسرى مفعـولها حتى يتم تسجيلها • كان البرلمان يرفض تسجيل القوانين الملكية ، فهم الملك أن يستخدم سلطاته ولكن دون جدوى • وشيئا فشيئا قوى صوت الشعب الذى أصبح قوة سياسية على نحو لم يسبق له مثيل فى فرنسا • وكانت كتابات فولتير وصحبه تثير النفوس وتبعث فيهـا الاحساس بالقدرة على فعل أى شىء • لم يجد الملك بدا ازاء ذلك من عزل دى بريين واعادة

نكر ، ثم أعلن عزمه على عقـــد الجمعية العامة • وفي عام ١٧٨٨ ، تم عقد الجمعية الوطنية العامة ، وكان اجتماعها في فرساى التى تبعد اثنى عشر ميلا عن باريس •

أيام عصيبة :

الى هنا لم يكن فى الأمر جديد ينبىء عن خطر قريب ، فنحن حيال ملك يريد انقاذ بلاده من ضائقة مالية شـــديدة أشرفت بها على حافة الافلاس ، فهو يدعو ممثلى شعبه على اختلاف طبقاته ، وللاجراء أكثر من سابقة فى تاريخ انجلترا السياسى ، فطالما اجتمع الملك والشـــعب هنـــاك على حل المشاكل ، فلم لا ينجح فى فرنسا اجراء نجح فى انجلترا ؟ ولكن الواقع أن الثورة الفرنسية لم تعرف فى حياتها كلها أياما حرجة مثل تلك الايام الاولى من حياة الجمعية الوطنية العامة ، فالاختلاف على نظام التصويت ، وما اذا كانت هذه الهيئة هيئة تحمـــل طابعها القديم فهى مدعوة بارادة الملك وحده يفضها حين يشاء ، أم هىجمعية ممثلة للشعب تمثيلا حقيقيا فهى برلمان وطنى ، هذه وغيرهـــا كانت مشـــكلات ظلت بغير حل وقتا طويلا •

رفض ممثلو الشعب فى البداية كل تعاون مع الحكومة حتى تقبل باجتماع الهيئات الثلاث فى غرفة واحدة، وبمبدأ التصويت الفردى ، بعد أن وافقت من قبل على أن يـــكون

عدد ممثلى الشعب مساويا لممثلى الطبقتين الأولين مجتمعتين وأقلق الرفض الملك وأصحابه ، وأقلقه أكثر فأكثر ما كان يفضى اليه تجمد الموقف بالضرورة من فض الجمعية وبقاء الضائقة المالية حيث هى ، ودعا عجز الحكومة عن العمل الى ثقة ممثلى الشعب بجماعتهم التى بدأ يبرز قادتها

الشعب يتحرك :

ففى ١٠ يونيو اقترح سييس الذى اشتهر بمعرفته للأصول الدستورية أن يدعو ممثلو الشعب أعضاء طبقتى رجال الكنيسة والاشراف الى الاجتماع معهم فى غرفة واحدة فان رفضوا ، مضوا هم ، فنصبوا أنفسهم ، وبدءوا العمل بلا رجال كنيسة ولا أشراف ولا نبلاء . ومهما تكن النية التى أضمرتها صدور رجال الطبقتين ، الكنيسة والاشراف حيال مثل هذا الموقف ، فان هيئة ممثلى الشعب كانت قد عقدت عزمها ألا تلين قناتها أو تحيد عن موقفها قيد أنملة بل هى ذهبت الى أبعد من ذلك ، فأخذت تفكر فى الاسم الذى ستعمل به فى مستقبل حياتها القريب . وفى ١٤ يونيو اقترح سييس مرة أخرى أن تدعو الهيئة نفسها « الجمعية الوطنية » وهو اسم رضيت به الجماعة وأقرته بأغلبية ٤٩١ صوتا الى ٩٠ صوتا . ويشكل هذا الحدث « نموذج الثورة الفرنسية فى واقع الأمر » . فقد أعلن ممثلو الشعب دعواهم أنهم يعملون من أجل الأمة الفرنسية

رغم أنف الملك ورغم أنف أصحاب الامتيازات[1]٠ ترى هل يفلح ممثلو الشعب فى تحقيق دعواهم ؟٠٠ لقد أدرك الملك وكذلك أصحاب الامتيازات خطورة الموقف٠ وما كان الرجل ليلقى السلاح ٠٠ فقد اقترح البعض عليه اجراء كاد ينساه فى غمرة الأحداث حتى أهل القانون أنفسهم ، ذلك أن الملك فى الزمن القديم كان اذا عقد جلسة ملكية أى حضر الاجتماع بشخصه ، لم يكن بد من طاعة كلمته ، فالملك الآن سيعقد دورة ملكية ، وسيعلن ارادته ، وستقبل فرنسا قولته ٠٠ ولكن الخطة باءت بالفشل ، فلم يكن يدور فى خلد ممثلى الشعب أن يخضعوا على نحو من الأنحاء ، وهم ، وقد أخرجوا من دارهم الدستورية حتى تجرى الاستعدادات للدورة الملكية ، مضوا يجتمعون فى ملعب للتنس قريب ، وهنالك أقسموا على أن يستمروا فى اجتماعاتهم فى وجه كل معارضة من أى ناحية هبت ريحها ، وألا يتفرق شمل الجماعة حتى تفرغ من وضع الدستور ، وشجعهم على المضى فى طريقهم ما لاح لهم من انقسام فى صفوف رجال الدين بفعل التباين الطبقى فيما بينهم ، وبالتالى فى موقفهم من دعوى ممثلى الشعب ٠ لقد كان المعروف أن رجال الدين ضد الشعب ولكن يوم ١٩ يونيو أخلف الظن ، فاذا الطائفة المقدسة تقرر بأغلبية صوت أن تنضم الى ممثلى الشعب ٠ وينضم بالفعل نصف رجال الدين اليهم يوم ٢٢ يونيو ، قبيل عقد الدورة الملكية ٠ وفى يوم ٢٣ يونيو ، يوم انعقاد الدورة الملكية أعلن صاحب العرش عن اصلاحات كثيرة انتواها فى النواحى المالية والادارية ، وعن قبوله قيام

الجمعية باعتبارها جزءا من الدستور ، ولكنه أعلن فى الوقت ذاته عن اصراره على نظام الغرف الثلاث فى مناقشة شئون البلاد والتصويت عليها · واذن فقد أراد الملك أن يسلم زمام الأمور الى طبقات أصحاب الامتيازات ، وكان يهدد باستعمال القوة فى القضاء على المقاومة فى كل صورها ·· هنا ثارت ثائرة رجال الشعب ، ورفض القوم مغادرة البرلمان فلم يلجأ الملك الى استخدام القوة ، ينفذ وعيده ، وانما دعا اليه رجال الدين والاشراف وطلب منهم مخالفة ما أمر به ، والانضمام الى ممثلى الشعب ، وهذا جانب من صورة حقيقة الملك التى قدمناها للقارىء منذ حين · لقد كان لين الجانب تقود النزعة الانسانية تصرفاته جميعا · وفى ٢ يوليو اجتمع أعضاء الهيئات الثلاث فى غرفة واحدة ، مركز الداعين الى الاصلاح فيها قوى يبعث على الاطمئنان ، ولم يكن هذا أمرا غريبا ، فقد دعا اليه شجاعة ممثلى الشعب ورجاحة تفكيرهم من ناحية ، وحاجة التاج الى المال من ناحية أخرى · ولم يغب عن الأذهان ما هناك من انقسام بين صفوف بطانة الملك ، فقد كان فريق منهم يرى أن من الخير أن يذعنوا للأحداث حتى تسنح فرصة يوجهون فيها ضربتهم القاضية -

موقف القوى الرئيسية فى البلاد :

واذاً ففي فرنسا الآن ثلاث قوى رئيسية ـ الأولى هي الملك والبلاط ، وهى الهيئة التى سلمت بمطالب ممثلى

الشعب ، وبعض أعضائها وعلى رأسهم الكونت دارتوا أخو الملك ، يأكل قلوبهم الأسف الكظيم على ضرورة التسليم بمطالب ممثلى الشعب، ويتطلعون الى فرصة استرداد الارض المغتصبة ، ان صح التعبير • والثانية هي الجمعية الوطنية ، وقد دعيت بعد قليل ، حين رأت في وضع الدستور أهم عمل تقوم به « الجمعية التأسيسية » ، وقد استمر يشترك في اجتماعاتها عدد كبير من رجال الدين والاشراف ، وان كان الأمر فيها بيد رجال الشعب وحدهم ، وكان معظمهم من الطبقات المتوسطة وجلهم أغنياء من طبقة التجار البورجوازية ، وكانت طبقة رجال القانون ممثلة كذلك تمثيلا قويا ، ولم يكن فى الجمعية عمال ولا ممثلون للطبقات العاملة على وجه الخصوص • وكان ممثلو الشعب عازمين على وضع دستور سياسى ، وكانت أفكارهم فيما يتعلق به واضحة متميزة • أما المشاكل الاجتماعية فكان حظها من اهتمام الجماعة ضئيلا ، ولم يزد الأمر هنا عن رسم الخطوط العامة • هاتان القوتان ، فقد كانت كل هيئة قوة فى ذاتها ، كانتا هيئتين اتضحت شخصية كل منهما وتحددت ملامحها •• وكانت تزاحمهما على السيادة فى مضمار الأحداث قوة ثالثة ، قوة لها خطرها الا أنها تتأبى على كل تحديد •• كانت تدعى أحيانا « الشعب » أو شعب باريس ، وتدعى أخرى « جيش الثورة » • فقد أدى انتصار ممثلى الشعب الى اضطراب أداة الحكم فى فرنسا ، فلم تكن تجبى الضرائب؛ وفى الريف كانت تشن الغارة بين الفينة والفينة على دار

رجل الكنيسة أو الشريف • وكانت التجارة فى كساد ، والبطالة تستشرى بين الطبقات الدنيا ، فكانت باريس تموج بالعمال ، يعربد الجوع فى أحشائهم وقد جاءوا الى المدينة ابان الثورة تحرك وجدانهم أفكار العصر فى صورة مبهمة لا يكادون يفقهون معناها • وكانوا يطلبون الخبز ، أول كل شيء يقيمون به أودهم ، ثم بعد ذلك « حياة أفضل» وكان ذلك حديث القوم فى تلك الايام ، حتى لقد يصدق على القوم نعت البعض لهم « ببغاء باريس » • ويشهد التاريخ أن هذه الفئة التعسة من البشر قد أمدت رجال الثورة بسلاح خطر فعال له قيمته حين يدوى أو يصمت • وانما يعزى نجاح الجمعية الحقيقى ، وهى هيئة قوامها من أوساط الناس الى تحالفها الخفى مع هذه القوة التى يدرك العقل وجودها ولا ترى العين أبعادها •

قيام الحرس الوطنى :

قرر الملك ــ ونحن فى الحقيقة لا نكاد نقوى بعد ذلك على التفرقة بين الملك والحكومة اذ يصعب بل يستحيل أن يتبين المرء حدود سلطة لويس السادس عشر على وجه الدقة ــ نقول ، قرر الملك أن يوجه ضربته ، فأمر بأن تسير فرق الجيش الى باريس ، رغم احتجاج الجمعية الوطنية • وفى ١١ يوليو بدأت المخاوف والريب فى أعقاب خبر بلغ باريس

يقول ان نكر ، معبود الشعب ، قد عزله الملك ، وان هذا العزل لا يعدو أن يكون بداية سوء كثير أضمره صاحب العرش لشعبه الأمين · لم تنتظر باريس حتى يوجه الملك ضربته ، وهي التي خلت من حكومة بالمعنى الحقيقي ، فماهي الا أن بدأ أعضاء لجنة الناخبين التي اختارت وكلاءها في الجمعية العامة في الاجتماع والأخذ في تنظيم حكومة بشكل ما · ثم هي ، أي لجنة الناخبين ، أنشأت الحرس المدني الذي لم يلبث أن غدا الحرس الوطني وقوامه أناس ما بين شرطة وجند الى مواطنين مسلحين للدفاع عن باريس · ولكن ثمة فئة اخرى كانت أكثر أهمية وأطول باعا وأشد مراسا من الحرس الوطني ، كانت تنظم صفوفها هي الأخرى ، وتتألف من رجال الحرس الفرنسي ، وكلهم جند فرنسيون يقيمون في باريس ، قد تشربت نفوسهم روح الثورة الفرنسية ، وهم قد جاهروا الآن بالانضمام الى أهل باريس ·

سقوط الباستيل :

وفي ١٤ يوليو عام١٧٨٩ ، سارت قوات باريس الصاخبة يقودها ، ان صح القول بأن أحدا كان يقودها ، محام شاب لامع الذهن زلق اللسان يدعى كاميل ديمولين ، تشن هجومها على الباستيل ، لم يكن للقلعة الكبيرة أهمية حربية ما ، فقد كانت حاميتها صغيرة تعوزها المؤن · ولكن اسم « الباستيل » كان في الماضي رمز الطغيان ، وربما عاد ثانية

ليقهر باريس ويردها الى الذل والهوان . فالهجوم الناجح عليها انما يكون بمثابة تحذير للملكية، وعرض لقوة الشعب، شعب المدينة في وقت واحد . لم يكن للهجوم على القلعة أثر بعيد فيها ، ولكن حاكمها دى لوينى de Launay سلم فى عصر اليوم ذاته ، اما تحت تأثير انهيار أعصابه أو من جراء فقده الأمل في عون عاجل يشد أزره . وعده الثوار أول الأمر ألا يمسه مكروه ، ولكن حين سلمت القلعة ، قتل الرجل فى فوضى الهرج والمرج الذى سادها اثر التسليم ، تدفق جيش باريس داخل القلعة ، ومضى يدك بنيانها . لم يغير سقوطها الموقف الحربى قليلا أو كثيرا ، وكانت القوات الموالية للملك كبيرة تخلص له الى درجة يمكنه معها القضاء على الثورة الباريسية ، ولكن الملك خضع هنا ثانية فقد كان يتردد على عادته بين جبن ركب فى طبيعته ، وانسانية فطرت عليها نفسه . جاء الى باريس ليعبر بشخصه وبلسانه عن موافقته على ما جرى ، وحضر صلاة أقيمت لذلك فى كاتدرائية نوتردام .

الشعب يتحول عن الملك :

واذن فالباستيل فى سقوطه لم يكن بعيد الأثر فى الموقف الحربى ، ولكنه كان له شأن أى شأن فى الناحية السياسية .. مرة ثانية انتصر ممثلو الشعب على الملك ..

كان الملك محبوبا أول الأمر من الشعب ، ولكن هذا الحب جعل يتناقص بسرعة ، وتحل محله شيئا فشيئا الريبـــة والشك وعدم الثقة • ومن ثم فقد ازداد اطمئنان الجمعية الوطنية تحت سقف بيتها الدستورى ، ولعل أهم مما عداه أن باريس ذاتها أصبحت تشعر بأن لها وجودا ، وباتت لها حكومة تسهر على أمرها • وتولى منصب عمدة المدينة فيها عالم فلكى يدعى بايلى ، تقلد منصبه فى فورة الشعور الحماسى اذ ذاك ، ونظم الحرس الوطنى ، وكان أول رئيس له الماركيز لافاييت المشـــهور • وبدأت سيطرة باريس ورقابتها على الثورة •

مضت الجمعية التأسيسية ، وذلك هو اسم الجمعيـــة الوطنية من الآن فصاعدا ، فى عملها ، فى ثقة لا حد لها ، ذلك العمل الذى سنعرض لنتائجه بعد قليل • ولكننا لابد أن نسجل أولا سير الأحداث التى أتمت بعـــد ثلاثة أشهر العمل الذى بدأه الهجوم على الباستيل وســـقوط معقـــل الطغيان •

الموقف فى باريس :

لم تتغير فى الواقع ملامح الموقف العامة ، فقد كان هناك بلاط خذلته الأحداث، وبقى يرقب فرصة الأخذ بالثار وكانت هناك جمعية ترتاب فى نوايا الملك وتناصب بلاطه

العداء ، وكان هناك شعب يعاني آلام الفقر والجوع ، أداة طيعة في يد أصحاب المؤامرات • وفي وسط هذه القوى التي تتنازع على السيطرة والسلطان الحقيقي ، لم يكن يمكن القطع بمدى مايفعل الملك ، بل ولا بمدى ما يبعث مثل هذا الفعل عليه من تدبير وتآمر على الملكية • لاجدال أن باريس قد تغيرت ، فصيحة شعبها الآن ترجع صداها أنحاء فرنسا كلها ، ثم أن صحفاً كثيرة رأت النور ، وكانت الجريدة السياسية ظاهرة جديدة في فرنسا ، ولها أثر بعيد في حياة الناس ، كما أن الأندية بدأت تتكون ، وتناقش بين جدرانها مسائل الساعة قبل أن تفعل الجمعية ذلك ، وتصوغ الرأى العام الفرنسى • وكان بعض هذه الأندية معتدلا ، وبعضها متطرفا ، ولكن كانت أهمها على الاطلاق الأندية الثورية ، وأبرزها نادى اليعاقبة(١) الذي غدا قوة هائلة تشكل الرأى الثوري الفرنسي ، حتى أنه كان يناهض الجمعية أحيانا ويقلق بالها ، وكان أحيانا أخرى يغلبها على أمرها فتأخذ برأيه • وأدي انتشار البطالة الى فتح المصانع العامة ، وهو اجراء يجمع دائما بين الاستهواء وخيبة الرجاء ، فقد خف

(١) اشهر جماعة سياسية زمن الثورة ، سموا باليعاقبة لانهم كانوا يجتمعون فى دير لليعاقبة فى شارع سان أونوريه • قوام الجماعة كتاب وعلماء وبرجوازيون أغنياء . تكونت بعد أحداث ٥ ـ ٦ اكتوبر سنة ١٧٨٩ التى جاءت بالجمعية الوطنية الى باريس ، فقد تكونت جمعية أصدقاء الدستور ، وعرفت بعدها باسم جماعة اليعاقبة • هدف النادى « تنوير الشعب وحمايته من الزلل » معظم الاعضاء يريدون ملكية دستورية .

العاطلون الى باريس زرافات ووحدانا ، يطرقون باب العمل الجديد ، وما هى الا أن أصبحوا عبئا ثقيلا على مالية الدولة التى كانت تشكو مر الشكوى من ضيق ذات يدها ، حتى أغلقت المصانع أبوابها فى أوائل شهر اكتوبر، ولفظ الأمل فى الحياة الكريمة كثيرين الى قارعة الطريق ، ضحية خيبة المسعى .

هجرة النبلاء وأثرها :

ومن أبرز نتائج سقوط الباستيل ، هجرة النبلاء من فرنسا ، فالملك حين خضع وأذعن لم يرض نبلاء كثيرون عن موقفه وكرهوا أن يعيشوا فى فرنسا التى أصبحت تسودها مبادىء بغيضة الى قلوبهم ، فشدوا رحالهم الى ماوراء حدود الوطن ، ينتظرون فرصة الانقضاض ، والعودة الى سابق العيش الرضى .

العودة الى سابق العيش الرضى :

رحلت طائفة من هؤلاء النبلاء الى انجلترا ، وقصدت فئة أخرى الى ولايات الراين ، وكان أمراء البيت المالك على رأس حركة الهجرة هذه ، واخوة الملك فى طليعتها . وما لبث أن تبعهم كل من كان يرى رأيهم من الإشراف . وفى المدن الألمانية التى عاش فيها هؤلاء ، كانت تجرى تقاليد

فرساى ، فقد غدا المهجر فى حياته قطعة من أرض الوطن ، وكان شغل القوم الشاغل حديث انهيار الثورة عما قريب. وكانت التدريبات العسكرية تجرى على قدم وساق استعدادا لليوم العظيم ـ يوم العودة . فقد كانوا يقولون ان الملك حين أذعن لمطالب الثوار ، انما اضطر لذلك اضطرارا بحكم حاجته الشديدة للمال ، ومن ثم فليس فى هذا الاذعان مايلزمه على أية صورة . وقد فعل نفوذ هؤلاء المهاجرين فعله السيىء حقا ، وكان أثره شرا كله . فقد كان الأمل الذى يراود أحلام عقلاء الفرنسيين اذ ذاك ، أن يقوم الوفاق بين الملك وشعبه وأن تكون العلاقة بينهما قائمة على الاحترام والثقة المتبادلة فى وقت واحد ، فلما جاءت حركة الهجرة، وقويت شوكتها على هذه الصورة ، تعذر تحقيق الأمل الكبير وقيل وقتئذ : « ما من شىء كان أشد منها ضررا على الملكية ولا أسوأ منها أثرا فى تطور الثورة » . ويعنى القائل « الهجرة » .

الغاء الاقطاع :

ونمضى فى الكلام عن سير الثورة فنقول انه لم يكد يرتفع النهار من يوم ٤ أغسطس حتى أعلن وسط مظاهر الحماس الشديد الغاء الاقطاع ، وتكاتفت الطبقات أصحاب الامتيازات ذاتها على الاطاحة بقاعدة وضعها القانونية ، فنزلت عن امتيازاتها الموروثة ، ودعا الأشراف الأيدى العاملة

في ضياعهم الى موائدهم ، يشاركونهم طعاما واحدا وشرابا واحدا فلا فرق بين سيد ومسود • لقد كانت حقا لحظات نبل نفس انسانية تجسدت فى أبناء الامة الفرنسية جميعا غير أنه حين تقرر « الالغاء » بالفعل ، شق على الافهام أن تفقه معناه حتى أعلنت الجمعية التشريعية آخر الأمر أن ما يعنيه قانون الغاء الاقطاع هو أن ما كان حتى ذلك الحين ملكية اقطاعية يصير ملكا حرا • وأن ما يجب أن يبقى حقا لصاحب الأرض حتى يعوض عنه ، انما هو حق ايجار الأرض الذى يجرى دفعه الآن على أنه « استحقاق اقتصادى » •

وأيا ما كان فقد صار هذا الالغاء في واقع الأمر طريقا انطلقت الجمعية على طوله ، مطلقة اليد فى اعادة البناء السياسى •

ولعل النقاش الدستورى ضرب من النشاط العقلى يروق حديثه أكثر من غيره فى الكلام عن تاريخ أوربا كله أو بعضه •• ففلسفة مونتسكير وروسو السياسية قد آن أوان ترجمتها الآن الى تشريعات حية ، ولم يكن فى حنايا الماضى الفرنسى قبل مونتيسكو وروسو ومن اليهما كثير يمكن أن يفيد منه العاملون فى الحقل السياسى • فهم قد تأثروا فى حاضرهم الى مدى بعيد بدستور الولايات المتحدة الامريكية • ولكن النموذج الحق الخفى فى هذه الناحية ، انما كان الدستور الانجليزى • لم يرتفع صوت واحد ينادى بالجمهورية ، ولم يعد الاستبداد العاطف الكريم الذى يترفق

برعيته على نحو ما يرسم صورته حكم فـردريك الأكبر فى بروسيا ، لم يعد « موضة » العصر ، وانما كان يرى الناس فى انجلترا المثل العظيم الكبير الوحيد للوفاق بين النظام الملكى والتشريعات الشعبية ٠

اعلان حقوق الانسان :

بيد أن حدثا آخر يستوقفنا هنا للحديث عنـه قبـل المضى فى حديث الثـورة ٠ ففى صباح ٢٧ أغسطس عام ١٧٨٩ ، بعد ليلة طال النقاش فيها فى الجمعية واحتدم ٠٠ أعلن الماركيز لافاييت بيان « اعلان حقوق الانسان » الذى ينبغي أن يكون قاعدة الدستور كله ، وتقول أول مادة منه :

ـ « ولد الانسان حرا ، ويبقى حرا ، متساوى الحقوق مع غيره ، ولا يقوم التمييز الاجتماعى الا على أساس مـدى الخدمة العامة » ٠

ويذكر الاعلان فى أول الأمر أن ما دعا أصـحابه الى وضعه انما هو اعتقادهم بأن الجهل والنسـيان أو ازدراء حقوق الانسان هي وحدها أمس البلاء ومصدر النكبات التى تحل بالشعب وبالبلاد مما يتمثل بعضه فى فسادالحكومات٠

ويضيق المقام هنا عنعرض لكل بنود الاعلان والتعليق عليها ٠ ولكننا نعلق عليه بصفة عامة فنقول انه وثيقة لم

توصد أبوابها في وجه النقد البرىء • من ذلك أن حاجات فرنسا العملية لم يكن لها نصيب فى كل مادار من نقاش واشتد حول حقوق الانسان ، وفضلا عن هذا ، فقد تبين أن بعض المبادىء فى صورتها التى صيغت بها فى الاعلان ، وأعنى الاعلان فى صورته الاولى عام ١٧٨٩ ، لم تكن تبعث على الارتياح عندما جاء دور ترتيب تفصيلات الدستور لعام ١٧٩١ ، على أنه مهما يكن من شىء فلا مناص من الاعتراف بأن « اعلان حقوق الانسان » انما يمثل الجانب النبيل من الثــورة ، ذلك الوجه منهــا الذى بغيره ما كانت تعتبر الثورة حدثا هاما فى التاريخ الأوروبى ، على نحــو ما هى عليه فى اعتبار الجميع الآن • وتحضرنى هنا ذكرى المقارنة بينها وبين ثورة انجلترا عام ١٦٨٨ ، تلك المقارنة التى طالما عقدت ولعلها مابرحت تعقد الى يومنا هــذا • ففى الثورة الانجليزية ، كان اعلان الحقوق فى البرلمان الانجليزى يعبر ببساطة عن حقوق الانسان الانجليزى القانونية والتاريخية ضد العرش ، بينما كان فى فرنسا يقوم على أساس مبادىء عامة ، وكانت فرنسا فى اعلانها تقوم بدور الناطق بلسان الجنس البشرى كله ، ومن ثم فلا يثير غرابة أن تبدو ثورة انجلترا فى نظر الناس «مجرد حركة عملية ناجحة» فى نطاق ضيق تقصد غاية ماتقصد الى اعطاء كل ذى حق حقه ، والى بناء دستورها على هذا الاساس فى حين تعتبر الثورة الفرنسية نقطة بداية جديدة لآمال جميــع الاجنــاس والشــعوب وجهودها • وحسبنا أن نلمع هنا الى الحقيقة القائلة بأن

وثيقة الاعلان تلك ظلت مدى ربع قرن أو يزيد ميثاق كل داعية الى الاصلاح أو الثورة فى أوربا ·

الملك فى باريس :

وكان ما يجرى فى فرساى اذ ذاك مما يأتيه الملك وبلاطه يثير التعليق الغاضب فى باريس ، فقد استدعيت الى فرساى فرقة من الفلاندرز ، وهم جند جلهم غير فرنسيين ، وكان مقدمها مدعاة الى القول بأن البلاط يعد ضربة قادمة يوجهها الى باريس · وفى نفس الوقت كانت الرغبة من الناحية الأخرى فى أن يقيم الملك فى باريس ، وهى رغبة أخذت تؤيدها الصحافة الفرنسية وتلح فى تنفيذها ، ظنا من جانبها بأن الوقت قد حان لتحقيقها ، وكانت هذه الرغبة قد ابداها الكثيرون من المسئولين غير الرسميين · وفى ٥ اكتوبر عام ١٧٨٩ تجمهرت فئة من الناس تطلب الخبز · وتوجهت الى فرساى ، تضع طلبها بين يدى مليك البلاد وبلاطه ·

وصلت الجماعة الثائرة الى قصر الملك عصر اليوم ، ولحق بها هناك لافاييت يقود حرسه الوطنى · انقضى مغرب اليوم فى التماس وتضرع وتظاهر لا ينطوى شىء منه على خطر ، فلما انتصف الليل ، اخترقت الغوغاء القصر ، وكاد الملك وزوجه أن يلقيا شرا كثيرا ، لولا أن لافاييت كان قد

جاء بطلب ، هو دعوة الملك للاقامة في باريس ، ولم ير الملك بدأ من الاذعان للرغبة الشعبية ، فغادر فرساى عصر يوم ٦ من اكتوبر ، غادر القصر الذى يقترن بالملكية فى كثير، الى قصر التويلرى في العاصمة الفرنسية ، وكان هذا قصر ملوك فرنسا فى القرون الوسطى ٠ وتبعته الجمعية الى هناك ومنذ ذلك اليوم صارت باريس مقر الحكومة ومركز ادارة البلاد ، تحمل طابع العاصمة في كل تصرفاتها ٠

مصير الملكية :

وفى الجمعية التأسيسية ، جرت مناقشات حامية حول وضع الملكية فى فرنسا ، أعلن لويس السادس عشر فى ختامها « ملك الفرنسيين بنعمة الله ومشيئة الأمة » ٠ وفى تحديد سلطاته ، تأثرت الجمعية بنظرية مونتسكيو فى فصل السلطات ، فكل من السلطات التنفيذية والتشريعية والقضائية ، ينبغى أن تبقى منفصلة عن الاخرى، والملك هو رئيس السلطة التنفيذية ، وله حق تعيين كبار ضباط الجيش ورجال الوزارة ٠ ولكن وفقا للنظرية سالفة الذكر ، وحتى يطمئن قلب الشعب من خيفة يتوجسها من ملكه فى ظل أحداث الماضى القريب ، رفضت الجمعية أن تحذو حذو النظام الانجليزى ، الذى يقضى بأن يكون للوزراء مكان فى المجلس التشريعي ، ذلك المجلس الذى يعتمدون على تعضيده فى الموافقة على مايصدر عنهم من أعمال بوصفهم وزراء ٠ ومن

ثم فقد نشأت ثغرة لا تسد بين ممثلى الشعب ووزراء الملك .
فان كان ثمة افتراق بينهما فى القصد ، فالسبيل الوحيد الى الانسجام بينهما ، انما هو الاتهام أو الثورة . وقد اشتدت مناقشة ميرابو لهذه النقطة بالذات ، ولكن جهاده من أجل الأخذ بوجهة النظر الانجليزية، ذهب أدراج الرياح ولم يكن أسعد حظا حين أراد أن يحتفظ للملك بحق الفيتو حيال أى تشريع ، فقد كان كل ما ناله الملك فى هذا الشأن حق فيتو يعطل ولا يبطل نهائيا ، بمعنى أنه كان لا يملك أكثر من أن يؤخر الأخذ باجراء ما أثناء دورة انعقاد واحدة .. على أن لويس كان ينحدر من أصلاب أعتى ملوك أوربا ، فكان كل ما تنفضه له يد الشعب من فضلها ، لا يزيد عن أن يكون صورة من صور الاذلال والامتهان فى نظره . لقد أمكنت التسوية الثورية فى انجلترا عن طريق استبدال أسرة حاكمة بأسرة حاكمة أخرى ، وكان بين أعضاء الجمعية من ينادى باحتذاء المثل الانجليزى هنا أيضا ، فيجرى نقل التاج من رأس البربون الى آل بيت أورليانز الذى اعتنق سليله الدوق فيليب مبادىء الثورة وأبدى اهتمامه بها فى صورة حماسية منقطعة النظير .

التشريعات الأولى :

وقد رئى الى ما تقدم أن يعهد بالسلطة التشريعية الى مجلس واحد يبلغ عدد أعضائه ٧٤٥ عضوا ، ولم ير انشاء مجلس ثان خشية أن يلوذ بحماه أعضاء الطبقة الارستقراطية

فى الماضى ، أو يحنو سقفه على مولد جيل جديد منها ، وما كانت فرنسا لتريد فى حالتها الحاضرة ارستقراطية ما ٠٠ كذلك أعيد تنظيم الجهاز القضائى ، فكان القضاة ينتخبون ، وألغى نظام التعذيب وأدخل نظام المحلفين ٠٠ وزال بجرة قلم نظام الادارة المحلية فى الاقاليم ، فغابت من الوجود مقاطعات فرنسا التاريخية منذ قديم ٠ بريتانيا ونورماندى وبروفنس وغيرها ، وكلها أسماء لا تقل خطرا فى التاريخ الفرنسى عن مقاطعات يوركشير ولانكشير وكورنوول وغيرها فى التاريخ الانجليزى على سبيل المثال ٠ فقد حل محلها ثلاثة وثمانون قسما يدعى كل قسم باسم بعض قسمات وجهه المحلية التى لا تومىء الى تقليد قديم ، أو تلتصق بها ولو بقية من عاطفة تذيب جذورها فى تربة الماضى ٠

وواضح أن الغرض من هذا التقسيم الجديد ، انما هو القضاء على كل ما من شأنه أن يعود بالتفكير الفرنسى أو الشعور الفرنسى الى ما كانت عليه الأوضاع زمن الثورة وما قبلها ؛ تلك الأوضاع التى كانت تقف حجر عثرة فى طريق الوحدة القومية التى كانت الثورة تصر على تحقيقها ، والتى تجلت فى الشعار الكبير القائل : « الجمهورية وحدة لا تتجزأ » ٠

الكنيسة والدولة :

وأخيرا فعلينا أن ننظر الى سياسة الجمعية التأسيسية فى ناحية الدين ٠ كانت المشكلة الدينية تثير المشاعر

والاحساسات العنيفة ، فقد كانت الحركة الفكرية توجه ضرباتها التى لا تتوقف الى سلطان الكنيسة في فرنسا ، ولا ينسى أحد فولتير هنا . وجاءت مع الثورة نظرتان الى الدين ، كان الاضطهاد قد واراهما حينا عن الأبصار ، الا أنهما لم تلبثا أن عادتا فى ضوء النهار : كان بين أعضاء الجمعية كثرة بروتستانية ، وهى طائفة لم تنس الظلم والقسوة اللذين انطوى عليهما سحب قرار نانت(١) التاريخى وكان أتباع جانسن ، ويمثلون طائفة النظاميين(٢) فى الكنيسة الفرنسية ممثلين كذلك فى الجمعية تمثيلا طيبا ، وكانت تتحرق قلوبهم لهفة على تسوية الدين القديم مع الكنيسة والملكية اللتين اضطهدتاها ردحا طويلا .. وكان الاتحاد الصادق بين الملكية والكنيسة الذى بدأ فى القرن السادس عشر ، يشكل الآن خطرا على الكنيسة أى خطر ، فالآن ، وقد غابت شمس الملكية المطلقة ، لم يكن بد من أن ينال الكنيسة أذى . وما هى الا أن أصابت التشريعات الجديدة أملاك الكنيسة فاعتبرت «الأعشار» جزءا من الاقطاع ومن ثم فقد ألغيت مع غيرها مما كان يفرضه الاقطاع على الناس ، كما بدت موارد الكنيسة الضخمة بوسعها أن تحل

(١) اصدره هنرى الرابع ملك فرنسا فى ابريل عام ١٣٩٨ ويسمح لطائفة الهيوجونوت بممارسة عقيدتهم شأن طوائف النصرانية الاخرى .

(٢) اى Methodists وقد انشأ الطائفة فى انجلترا القس جون ويزلى عام ١٧٠٣ ، ومعناها أصحاب الطريق ، وهم قوم متزمتون يلتزمون الحرفية فى كل شئون الدين .

مشكلة البلاد المالية ، فقام تاليران ، أسقف أوتان، بحركته البارعة التى استهل بها حياته السياسية اللامعة ، فاقترح نقـــل ثروة الكنيسة الى خزانة الدولة ، وأن تقوم الدولة بالتزامات الكنيسة ودفع مرتبات رجالها ، وتقرر الأخـــذ برأيه ٠

احتج الكثيرون على هذا الاجراء احتجاجا شـــديدا ، ولـــكن على غير طائل ٠ ورأى الناس الجمعية بعدها تستدير فتطلب من الحكومة تنظيم الكنيسة من جديد ، تلك الكنيسة التى أصبحت الدولة تدفع مرتباتها ٠ وكان لها ما ارادت ألغيت الأبرشيات الأولى ، وحلت محلهـــا أبرشـــيات أخرى تتفق والتقسيم الادارى الجديد (أى تقسيم رقعة البلاد الى ثلاثة وثمانين قسما محليـــا) ، وأعيـــد ترتيب مرتبات القساوسة فانخفض مرتب الأساقفة عن ذىقبل ، بينما زاد مرتب صغار القسس عما كان ٠ وأخطر من ذلك أن تقرر تعيين الأساقفة والقساوسة بالانتخاب الذى هو حق مطلق لكل مواطن بغض النظر عن عقيدته الدينية ٠ وقد أثار هذا الاجراء ضجة كبرى ومعارضة شـــديدة ، الا أن أصحابه دافعوا عنه بقولهم انه لا يعدو أن يكون رجعـــة الى العـــادة البدائية ٠ ولمـــا عرض الأمر على البابا لابداء الرأى فيه ، والموافقة عليه ، رفض كل ما قدم اليه ، وهدد بالطرد من رحمة الكنيسة كل من يلتزم به على نحو من الأنحاء ٠ ولكن الجمعية لم تحفل ، ولم ترتد عن موقفها رغم تهديد عاهـــل الكنيسة الأكبر ، وراحت ترد على رفضه بطلبها الى رجال

الكنيسة أن يحلفوا يمين الولاء « للملك والقانون والامة »٠ عندئذ انقسمت الكنيسة فريقين ـ فريق قبل أداء اليمين ، وفريق لم يقبل ، وقامت الدولة فى مبدأ الأمر بمنح معاش لـكل قس تحرج من القسم ٠

على أنه يبرز من بين نتائج هذا التشريع الكنسى نتيجتان سيئتان للغاية ـ أولاهما هى استقطاب المشاعر حيال الثورة على نحو لم يسبق له مثيل ٠ فالنبلاء الذين هاجروا أعلنوا الحرب عليها ، بالفعل ، وان لم تأت حركتهم المضادة بغير نتيجة واحـــدة ـ هى ازدياد تماسك القوى الشـــعبية ، وثانيتهما أن الملك المتدين الذى قبل الثورة فى مبـدأ الأمر فى تردد كثير ، وجد نفسه الآن يغلو فى معارضته لها ، فهو ان كان ، قد وقع على القوانين ، فحتى لا تهب عليـــه ريح الاحتجاج العاتية لا أكثر ولا أقل ، ولكن عدم موافقة البابا الآن قد بعث الاستياء فى نفسه كثيرا ، حتى أننا نراه يكتب بعدها بقليل يقول : « ليغفر الله لى أن وقعت باسمى رغم ارادتى ، أجيز قوانين تتعارض مع نظام الكنيسة الكاثوليكية وعقيدتها » ٠ على أننا اذا أردنا أن نصور حقيقة هذا الأمر لم نملك الا أن نقول ان هذا الاجراء الدينى بذر بذور الخلف والفرقة فى تربة الأمة الفرنسية قاطبة ، وما لبث أن دعا الى الحرب الأهلية قبل فوات وقت طويل ٠

فرار الملك :

وكان التشريع الكنسى سالف الذكر أحـــد الأسباب الرئيسية التى دفعت بالملك الى الفرار من باريس ، ففى يوم عيد الفصح من عام ١٧٩٢ ، حاول لويس الذهاب الى قصر سان كلو الذى يبعد ستة أميال عن باريس ، حتى يتخفف من اجراءات الكنيسة الجديدة فى ظل الدستور الجديد .. ولكن شاء نكد طالعه أن يعترض طريقه جمهور يرتاب فى أمره ، واذا لافاييت نفسه يخفق فى أن يفسح الطريق أمام سيده الى قصره . ووضح أن الملك لايريد أن يكون سجين قصر التويلرى ، وكانت الصحافة الفرنسية كلها تضرب على وتر واحد نمت نغمته عن عداوة تزداد وريبة تعمـــق . وساء الموقف أكثر عندما جعل النبلاء يرددون القول بقرب عودتهم الى وطنهم وتحرير الملك الأسير المسكين ، فقد كان هـــذا الترديد فى ذاته يشكل مصدر خطر شديد على شخص الملك وحياته ، ذلك الملك الذى كان يفكر دائما فى الرحلة بعيدا عن باريس ، وفى أن يعيد النظر فى الدستور . وقد كانت هذه هى النصيحة التى أبداها الماركيز ميرابو قبل موته فى أبريل عام ١٧٩١ ــ « ان الملك لابد أن يجسر ويذهب الى روان ،ويدعو الجمعية لتلحق به هناك ، ثم يجرى تعـديلات هامة فى الدستور ، ولكن عليه أن يفعل هذا كـله على نحو لا يثير الشك فى ولائه للثورة أو مبادئها الرئيسية » .. ولكن الملك والملكة لم يكونا يثقفان بميرابو ، فقد كانا يريان فيه رجل علم اختار جانب الملكية من أجل أغراض ذاتية..

وذهب موت الرجل الحكيم بالأمل فى آخر خطوة لتنفيذ الفكرة • بيد أن الملك جعل يزداد ميله الى الفرار من قيد باريس ، ورسم خطة لذلك مؤداها أن يتصل بالجنرال بوييه قائد الجيش الفرنسى فى الجبهة الشمالية الشرقية ، وأن يملى فى ظل السلاح التغييرات التي يرى اجراءها فى الدستور، واولها ، ولاجدال، وقف بل الغاء التشريع الكنسى ومنح مزيد من السلطة الحقيقية لطبقة النبلاء ، وان دعا الأمر الى أن يلجأ الى قوى أوربا الكبرى •

كادت هذه الخطة تكلل بالنجاح • فقد فر الملك مع زوجه وأولاده ، يرتدى زى مربية لصغاره ، من قصر التويلرى دون أن يراه أحد ، ثم حملته عربة خارج المدينة ، بلغت به فارن ، وهى مدينة صغيرة على نهر الميز ، ولو أنه بلغ الضفة الأخرى ، لكتبت له السلامة ولذويه ، ولكن القدر كان له بالمرصاد ، فقد افتضح أمره ، وقبض عليه صاحب حانة فى قرية قريبة قابعة فى جوار فارن •

ساد الذعر باريس ، فقد وقع القوم على رسالة بخط يده تركها فى العاصمة قبل رحيله الخفى عنها ، يؤكد فيها رفضه الدستور ، وكان يزيد من هذا الذعر ما بدأ يلوح فى الأفق من شبح الحرب الخارجية ، غير أن هذه المخاوف كلها

لم يلبث أن خفف وقعها على قلوب الأهلين نبأ القبض على الملك ، وان أثار موقفه الآن مشاكل صعبة للغاية . فكيف يكون التصرف حيال ملك هارب ؟ لقد نجح من قبل جيمس الثاني على ضفة المانش الأخرى فى الفـرار بحيـاته . وود البعض الآن ، لو كانت لهذا التعس فرصته ، وقال آخرون بتغيير العـــائلة المالكة والاعتراف بدوق أورليانز ملكا على البلاد ، ولكن أغلبية الجمعية أصرت على عودة الملك الى باريس وايقافه عن مباشرة عمله حتى تفرغ من وضـع الدسـتور ، فتعرضه عليه للموافقة عليه ، فان قبله عاد ملكا ثانيـة ، وان رفضه ، فقد العرش ، وبدأت مواجهة مشكلة من يحل محله . كان هذا هو قرار الجمعية ، وانه لموقف كريم حقـا من جانب ممثلى الأمة . ولكن كانت ترتفع فى أروقة الجمعية أصوات قلة ترجع صداها « ببغاء باريس » معلنة مؤازرتها بلا قيد ولا شرط ، تنادى بعزل الملك واعلان الجمهورية .. لم تكن فكرة الجمهورية قد نبتت قبل الآن فى تربة الشعور القومى فى فرنسا ، ولكن الموقف الآن غيره فيمـا قبل .. وحدثت قلاقل واضطرابات فقدت خلالها بعض الأرواح يوم ١٧ يوليو، وتعرف فى التاريخ الفرنسى بحوادث قتل «شان دى مارس » . وكانت هذه بداية الحـركة التى جعلت من فرنسا جمهورية فى مدى عام أو أقل قليـلا ، وكان بايلى رئيس الحرس الوطنى الذى أصدر أمره باطلاق النـــار ، قاصدا تفريق المتجمهرين لا اصابة بنى جلدته ، ،وضـــع سخط الناس جميعا .

الملك يقبل الدستور :

وفي شهر سبتمبر عام ١٧٩١ ، تم وضع الدستور ، وقبله الملك ، وبدا أن الثورة قد استنفدت أغراضها فلم يعد لها من وجود ، فقد اعتمد الملك دستورا يماثل دستور انجلترا ، ولم يكلف الأمر عناء كبيرا أو أرواحا كثيرة ، وظنت كثرة من المراقبين السياسيين الأجانب أن فرنسا قد ودعت ليل محنتها ، ولن تلبث أن تتنفس مع الصبح نسمة السلام مرة أخرى فى ظل حياة دستورية طيبة .

الثورة الفرنسية ... حمراء

« الجبناء قساة دائما »
(جيبون ٠٠ انهيار الامبراطورية الرومانية وسقوطها)

لعلى لا أجاوز حدود الحقيقة حين أقول انه يكاد يستحيل علينا فهم الثورة الفرنسية اذا نحن نظرنا اليها وقد غابت عن أنظارنا وجوهها الداخلية وتطوراتها • فنحن كلما أمعنا النظر فى هذه التطورات ، اتضحت لنا معالم طورها الأخير كله ، وهو الطور الذى نشبت فيه الحرب بين فرنسا والدول الأوربية لتتصل مدى ثلاثة وعشرين عاما ، لم تنعم فيهـا فرنسا بلحظة من سلام • وفى عرضنا لأسباب الحرب تلك والخطوات التى دخلت بها أرض فرنسا ، لابد أن ننظر أولا فى حالة البلاد وقت نشوب الحرب •

الجمعية التشريعية واحزابها :

جاءت الجمعية التشريعية الى الدنيا فى خريف ١٧٩١ ولم تكن تضم أحدا من أعضاء الجمعية التأسيسية ، فآلت

أقدار الفرنسيين الى أيدى جماعة لم تتبلور بعد شخصيتها الاجتماعية فى نظر الناس أو تستبين صلاتها الحزبية ٠ ومن ثم فقد كان أثرها ضعيفا ، وكان صاحب الأثر الحقيقى على مجريات الأحداث انما هى الصحافة الفرنسية والأندية السياسية لا مقاعد الجمعية التشريعية ٠

وكان كثير من أعضاء هذه الجمعية لا ينتمون الى حزب بعينه ، ولكن شيعا بعينها قد تجددت قسمات وجوهها تحت سقف الجمعية : حزب اليمين أو المحافظين فى البرلمان ٠٠ ويعرفون باسم الفويان ويمثلون فى الداخل آراء لافاييت فى الخارج ٠ وكانت هذه الطائفة أعظم الأحزاب القائمة شأنا ، الا أنها لم تلبث أن تخطتها فى سباق النفوذ والسلطان أحزاب أخرى ، فاليساريون أو الراديكاليون فى البرلمان انقسموا فريقين بعد حين : الفريق الأول وهو فريق الجيروند ، وهو اسم الجهة التى وفدوا منها ، وأغلب هذا الفريق شباب يافع يتدفق قوة وحماسة ، وذلاقة لسان ٠ وهم وان قبلوا القول بالملكية اذ ذاك ، الا أن مثلهم الأعلى كان الجمهورية ، وكان مصدر قوتهم الرئيسى خارج باريس ـ وأعنى ـ الأقاليم والريف ، ثم هم اتخذوا بعد ذلك صفة ممثلى الطبقات المتوسطة ، وان شابت النظرة اليهم أول الأمر شائبة من خوف من فرط خطرهم الثورى ٠٠ وكان قادتهم الكبار أربعة هم : بريسو ، وبوزو ، وفينيو ، وورولان ، وكانت زوجة هذا الأخير بعيدة الأثر فى أعمال الحزب ومجالسه ، حتى أنها لفتت النظر أكثر من أى

آخر بقوة شخصيتها ، ولم يكن اليعاقبة ، أهل الفريق الآخر يتميزون ، أول أمرهم ، عن الجيروند ، ولقد رأينا من قبل النادى الذى حمل الحزب اسمه ، وكان حزبا أشد قوة وبأسا فى باريس منه فى برلمان الأمة ، وكان يشكل قيادته مثلث عظيم أطرافه روبسبيير ومارا ودانتون ، وثلاثتهم أكبر قوى سياسية بعيدة الأثر فى العاصمة الفرنسية ٠

وزارة الملك الأولى :

كان من حق الملك تعيين الوزارة دون الرجوع الى البرلمان والاحاطة برغباته ٠ اختار الملك وزارته الأولى من حزب المحافظين ، فلم يلبث أن نشأ احتكاك بينه وبين الجمعية ٠٠ كان فرار الملك قد أفقده حب رعيته الأول ، وكانت شخصيته الآن ترتقى اليها الريب وتزايلها ثقة الشعب ، فكان كل ما يأتيه يساء تفسيره ، وحين رفض قبول قانون يقضى بالحكم بالاعدام على كافة النبلاء والمهاجرين الذين لم يعودوا الى البلاد قبل شهر يناير عام ١٧٩٢ ، وحين أبى أن يوافق على قانون ينطوى على تعسف شديد حيال القساوسة الذين رفضوا حلف اليمين الدستورية ، أفضت النظرة اليه فى ضوء هذا كله الى اعتباره عدوا للثورة ٠ وقوى الاحتجاج على أعماله الى درجة أن اقتضاه العقل اقالة حكومة المحافظين وتعيين أخرى من بين صفوف الجيروند ٠

وزارة جديدة :

تقلد رولان منصب وزير الداخلية فى الوزارة الجديدة التى كان أهم شخصياتها ديمورييه ، وزير الخارجية .. وكان هذا أقل الناس صـلة بحزب الجيروند . ولما كان للشئون الخارجية خطرها فى حياة فرنسا فى تلك الفترة من تاريخها ، فلابد أن نولى وجوهنا شطرها ، لنرى كيف أقحمت فرنسا فى حرب خارجية عادت على البلاد بغير قليل من خير وشر .

الحرب الخارجية :

كانت الحرب منذ البداية موضوع النقـاش الأول فى نزاع أطراف الجمعية المختلفة . كان البعض يرى أن الحرب ترتد أساسا الى أطماع الثورة وعواطفها ؛ ونسب آخرون نشوبها الى الغيرة والخوف من جانب القوى الكبرى . حقيقة كان الموقف الدولى فى أوربا وقتئذ ينطوى على عناصر خطر كبيرة ، ولكن لم يكن شىء منه يدعو أو يومىء الى ضرورة الاشتباك فى حرب مع فرنسـا ؛ فى حين أن فرنسا ذاتهـا وهى تضع دسـتورها قـد قر قرارها على عدم الدخول فى حرب الا من أجل الدفاع عن أرض الوطن. وبدت بريطانيا بادىء الأمر تعزف عن تجديد الصراع الطويل مع جارتها الكبيرة ، فرنسا . ففى أوائل الثورة،

كان الشعور العام فى انجلترا شعور من يشاطر آخر حاله ويعطف عليه • حقا ارتفعت فى انجلترا أصوات تحذر من شر مستطير • كصوت ادموند بيرك مما يفصل القول فيه فصل الكتـــاب الأخير ، وتعلن أن الثـورة الفرنســـية شيء يغـاير تمـــاما الثـورة الانجليزية عام ١٦٨٨ ، وأنها ، أى الثورة الفرنسية ، بما تعتنقه عقيدة وتضربه مثلا تهدد النظام القـائم فى أوربا • بيد أن هذه الصرخات الداوية كان ينازعها أسماع الانجليز أصوات أخرى تعدلها قوة ، تجلت فى حمـاسة الشعراء وارتياح الساسة ، فكان يعم جو الادب وغيره أصـــداء قصائد الشاعرين الكبيرين وردزورث وكوليردج الحماســية الرائعة ، ترسم صـــورة آمال المســـتقبل الـكبار ابان اندلاع نار الثورة ؛ ويعلق الى يومنــــا هذا بعض هذا الفيض الشعرى بذواكر الكثيرين، ومنه قول وردزورث : « ان النفس لتغتبط بحياتها فى ذلك الفجر » • وقوله فى مكان آخر : « ان من أسباب السعادة الحقة أن يكون المرء شابا » •• وكانت الحكومة الانجليزية فى شـغل شاغل عن الثـــورة وأحداثها ؛ فقـــد كانت تخمد فتنة تمزق هولندا تهدف الى الاطاحة بملكها • وكانت الحركة تضم عناصر ثورية ، تحـــالف حاكم هولندا مع بريطانيا وبروسيا ؛ ولما أخمدت الثورة الهولندية ، أخذ الناس لا يعلقون أهمية كبيرة على ماقد تشكله فرنسا الثـائرة من خطر على أنظمة الحكم الأوربية •

أما الامبراطورية النمسوية فكانت تشكل نظاما ضعيفا يتهاوى مع الزمن ؛ ولم تكن قوتها فى الامبراطورية نفسها ، وانما فى بعض ولايات منها ، وفى ولايتى بروسيا والنمسا على وجه التحديد . وكانت هاتان الولايتان الأخيرتان عدوتين منذ قديم ، تغرى البغضاء كلا منهما بالقضاء على الأخرى . وكانت ذكرى حرب السنوات السبع لم تخف مرارتها فى القلوب ، وخاصة فى فينا ، ثم ان النمسا ذاتها كان لها من مشاغلها الكثيرة مالا يهيىء لها فرصة فراغ تفكر فيها فى القضاء على حركة الثورة فى فرنسا . وكانت بلجيكا تشكو هى الاخرى ، وكانت المجر تقف على أبواب ثورة .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، فقد كانت الدول التى تتاخم حدودها حدود الامبراطورية لا يستقر الحال فيها فى صورة أو أخرى ، فبولندا مثلا كانت مسرح أحداث لاتقل خطورتها الدولية عن خطورة الموقف الفرنسى . حتى أن محاولة الدول الكبرى فى أوربا الانقضاض عليها وضم بعض أراضيها لها لم تكن تعنى أكثر من احداث اضطراب شديد فى ميزان القوى الدولى .

لهذه الأسباب مجتمعة ، جعلت دول أوربا ترقب بعضها بعضا تجاه الحركة الفرنسية دون أن تجرؤ على خطوة عملية واحدة ضد فرنسا . ولا حاجة بعد هذا الى القول بأن هذا الاضطراب كان سببا من أسباب الانتصار العجيب الذى أحرزته الثورة ضد التحالف الأوربى .

أسباب الحرب :

كانت العلاقات بين فرنسا والامبراطورية تسير في طريق وعر منذ أمد غير قريب . فالقرارات الفرنسية التى بدت فى أول الامر داخلية فى طابعها لم تلبث أن تركت آثارها فى العلاقات الخارجية . فالغاء الاقطاع مثلا قد ذهب بالحقوق الاقطاعية التى كان يتمتع بها رعايا ألمان لهم أراض فى داخل الحدود الفرنسية ، وحرم التشريع الكنسى أساقفة كولون ومينز من الأعشـــار التى كانوا يتقاضونها من رعاياهم الفرنسيين . واذن فلم يكن فكاك من الاحتكاك بين الامبراطورية الالمانية وفرنسا التى كانت هى الاخرى لهـا ما تشـكوه من جارتها الكبيرة . ألم تفر كثرة من النبلاء الفرنسيين الى الارض الالمانية بعد قرارات الثورة التى سلفت الاشارة اليها فى أكتوبر عام ١٧٨٩ ؟ الم يزد الأمر عن مجرد «الهجرة» من الوطن ، فكان يجرى الاستعداد لاسترداد الارض من غاصبيها فيما ظن النبلاء؟ الم يكن يقوم بلاط فرنسى فوق الأرض الألمانية ، ويجرى تدريب الجنود وغير ذلك مما لا يبشر بخير حيال الثورة ؟!!

وننتقل الى نطاق احتـكاك آخر . أدى فرار لويس من باريس الى اعادته واذلاله على نحو ماعرفنا ؛ ولم يكن بوسع ليوبولد ، امبراطور النمسا والمجر أن ينظر الى هذا كله دون أن يعتريه قلق شديد ؛ لا لأن الملكة مارى أخته فحسب ، وانما لأمور تتعلق بالنظام فى ذاته . بيد أنه مع

ذلك لم تكن تستبد به الرغبة فى التدخل المسلح فى شئون فرنسا ، وانما جعل يسعى الى اجراء سياسى يكفل انقاذ الملك والملكة مما كان يكتنف حياتهما من شر وبلاء ·
لجأ الى ملك بروسيا فردريك ، واجتمع الملكان قرب درسدن على نهر الألب، وبعد تسوية بعض الخلافات بين بلديهما ، أعلنا بيانا مشتركا يؤكد ضمان سلامة أصحاب العرش الفرنسى ؛ غير أن هذا الاعلان لم يكن له من أثر الا زيادة كراهية الشعب تجاه لويس ·

هذه هى صورة الموقف الخارجى فى محيط علاقات فرنسا الدولية ، حين جاءت وزارة الجيروند التى كانت ترى بالاجماع الدخول فى حرب خارجية ، وكان رأى مدام رولان أن الحرب هى السبيل الوحيد الذى يستطيع أن يرتفع بالشعور الفرنسى الى درجة أن يرى أصحابه ضرورة الأخذ بالنظام الجمهورى فى حكم البلاد وكان وزير الخارجية يحلم بحلف دبلوماسى يعطى فرنسا فرصة النجاح ، فكان يأمل فى تعضيد بروسيا وانجلترا ، بل ذهب الى حد أن كانت تراوده فكرة عمل الجيوش الفرنسية تحت امرة برونسويك البروسى حتى يقوده الى النصر وفق الاستراتيجية البروسية زمن فردريك الأكبر · وبينما تتعثر المفاوضات التى كانت تجرى مع النمسا حول أسباب الاحتكاك سالفة الذكر، كانت العواطف الفرنسية تلتهب حتى سادت نزعة خالصة الى الحرب ، تلك النزعة التى صرح بحقيقتها جهارا اليعاقبة المتطرفون أمثال

مارا ودانتون روبسبيير · ويدعو ذكر هـذا الأخير الى أن نقف هنا قليلا ، لنقول انه رغم مسايرته نزعة الحـرب السائدة ، لم يكن ، اى روبسبير يريد الحرب بحال ، ولعل الثورة الفرنسية فى طريقها الطويل لم تعرف بيانا حكيما عاقلا مثل البيان الذى ألقاه الرجل يقيم الحجة على سلامة القول بعدم دخول فرنسا فى حرب ، أية حرب ، اذ أن أثرها السيىء قد يرتد على الثورة وأصحابها ·

ولكن كلمات روبسبيير لم تلق آذانا صاغية ، حتى الملكيون انفسهم كانوا يرون الحرب ويريدونها ، فقـد كانوا يؤمنـــون بأن الحـــرب من شـأنها تقوية الهيئة التنفيذية ؛ وهذا من شأنه بدوره تقـــوية جبهة الملكية واعادة سلطان الملك ونفوذه الى ماكان عليه قبلا · من هنا، ساد التوتر جو المفاوضات بين فرنسا والنمسا ، وساء الموقف أكثر فأكثر حـــين مات ليوبولد فى مارس عام ١٧٩٢ ؛ وخلفه فرنسيس الثانى الذى لم تكن له خبرة ســابقة ولا حسن تدبيره ، رفضت النمسا طلبات فرنسا التى تعلق بعضها بنشاط الأمراء الفرنسيين فى الارض الألمانية ؛ وفى ٢٠ أبريل من عام ١٧٩٢ ، وفقا لقواعد الدستور الجديد ، نزل لويس السادس عشر الى مقـــر الجمعية ، والدمع يترقرق فى عينيه ، ليعلن الحرب على فرنسيس ، لا بوصفه امبراطورا ، وانما باعتباره ملك المجر وبوهيميا ·

الحرب ونتائجها :

تبخرت أحلام ديمـــوريـيه وآماله فى الأحــــلاف ، فلا بريطانيـــا شدت أزره فقد وقفت بمنأى عن مسرح الاحداث ، ترقب سير الامور ؛ ولا بروسيا أمدته بتكتيك حربى لا يشق له غبار ، فقد انضمت الى جانب النمسا . كان الفرنسيون قد انتووا الهجوم على ولايات الامبراطورية فى الأراضى الواطئة ، ظنا منهم بأنهم ملاقون ترحيبا من العناصر الثورية فيها ؛ وعونا يؤمن لهم نصرا سريعـــا سهلا . ولكن الرياح جاءت بما لم تشته السفن ، فقد فشلت الحملة الأولى فى تاريخ الثورة فشلا ذريعا ، أدى اليه سوء النظام وسوء التدريب وسوء التخطيط وعدم ولاء كثيرين من الضباط للثورة . اعترفت الثـــورة بهذا الفشل والمرارة ملء قلبها . وكان للفشل أثره المباشر فى باريس ، فقد ظن الناس بالملك ووزرائه الظنون ، اذ اخترقت مظاهرة مسلحة قصر التويلرى ، وبلغت الى حيث الملك والملكة ؛ ولم ترفع يدهم عن القصر حتى جاء الحرس الوطنى . ان الحدث فى ذاته لا أهمية كبيرة له ؛ ولكنه يلمح الى الأسباب التى دعت الى الاطاحة بالملكية ، بل والى حكم الارهاب . لقد كانت هناك جبهة خارجية ؛ وكان الفشل نصيب العاملين فيهـــا ، فلم يكن يجافى الواقع أن يشعر الناس بأن أول شرط ضرورى للنجاح انما يتمثل فى الطاقة وارادة النصر فى رأس الدولة .

واعتقد القوم بأن الملك خائر القوى ، خائن القلب ؛ أو هو يترنح بين الخور والخيانة • وبدا أنه من الضرورى أن تفرض عليه سياسة أكثر فاعلية ؛ فان لم يفلح فى ادارة البلاد بها ، تخلى عن الحكم •

موقف اليعاقبة من الملك :

فشلت الجمعية ، ولما تبلغ من عمرها عامين فى ضبط الأمور والسيطرة على الموقف • فلم يكن قادة الشعب من أعضائها ، ثم هى كانت ترقب سير الأحداث فى لهفه خلت من القدرة على فعل شىء • وكان الشعور السائد بين مختلف طبقات الشعب محافظا على وجه العموم • فلم يروا أن يسيروا فى طريق من شأنه الاطاحة بالعرش• واذن فالقضاء على الملكية وسلطانها لم يكن ليأتى من جانب الجمعية ، ولا من ناحيـــة الأغلبية الشعبية ؛ وانما كان لابد أن يأتى من ناحيـــة الأقلية التى عقدت عزمها على ما تفعــل • وكانت هذه الاقلية قائمة بالفعل بين صفوف اليعاقبة ، فهم قوم اختلفت أصولهم وتباينت طبقاتهم ، فكان قليل منهم ينتمون الى الطبقات العاملة , ثم انهم أى اليعاقبة ، كانوا على خلاف فى الرأى فيما بينهم تجـاه مسائل لا تدخل فى حصر ؛ ذلك الخلاف الذى أفضى الى نزاع بين أعضاء الجمـاعة ، اختلفت صـــورته أشكالا

وألوانا ، الا أن شيئا واحدا كان يؤلف بين قلوبهم فيجمع كلمتهم ـ ذلك هو مبدأ الولاء للثورة وحب فرنسا ، فقد كان الخطر الناجم من الحرب الناشبة وما ترتب عليها من تهديد لمبادىء الثورة ، قد حدا بهم الى التفكير فى القضاء على الملكية وتولى زمام الأمور فى البلاد وذلك حدبا على مصالح الثورة وحفاظا عليها . لقد سادت الثورة الا الآن طبقة البورجوازيين ؛ وهاهى اسلطة الآن تنتقل الى أولئك الذين يتكئون على عطف شعب باريس ؛ وانهاء الحرب الخارجية وحدها التى أفضت الى هذا الوضع .

الموقف بعد الحملة البلجيكية :

ساء الموقف الحربى بعد فشل الحملة البلجيكية ؛ فقد آزرت بروسيا النمسا ؛ وتقرر أن يقود دوق برنسويك الجيوش البروسية النمسوية الزاحفة الى قلب فرنسا .

تدفقت فرق الحرس الوطنى من الأقاليم الى قلب باريس ، تتخذ من المناسبة فرصة للمظاهرة الوطنية . ويحمل الزمن الينا عبر السنين صدى لحن المرسيلييز الذى كانت تنشده فرق جيش مرسيليا فى العاصمة يوم ٣٠ يونيو !

لجنة تنفيذية مؤقتة :

في ظل هـــذا كله ، تشكلت لجنة تنفيذية مؤقتة رئاسة دانتون الذى يدخل سيرة الثورة الآن لأول مرة • هذه اللجنة قوامهـــا يعقوبيـــون لا هم مرموقون ولا هم مغمورون ؛ كما فتح باب العمل فى الحرس الوطنى ، عامة الطبقة المتوسطة ذات يوم ، أمام الوطنيين جميعا ؛ فتشرب هذا الحرس بروح الثورة • وفى ١١ يوليو اعلنت الثورة أن البلاد فى خطر ؛ وفى ٤ اعسطس نشر بيان دوق برنسويك الذى هدد فيه بالدمار للمدينة الفرنسية ان أصاب الملك سوء ؛ مما زاد من روح العداء للملكية فى نفوس الشعب • وفى ١٠ أغسطس حدث ماتوقع الكل؛ فقد سار فى أخريات الليل عدد من أعضاء لجان الأقسام (لجان الناخبين فى أحياء باريس) وحلوا محل المجلس البـلدى وأقاموا من أنفسهم مجلسا بلديا ثـوريا • وكان الملك قد استعرض فى صباح ذلك اليوم حرس شرف من الحرس الوطنى ، ومن حرس ســويسرى أجـير ، أدرك صاحبه من خفـــوت صوت أفراده فى تحيته ضعفه المنتظر ساعة يجد الجد • ولما ارتفع النهـــار ، بدأت باريس تهدد القصر بالهجوم عليه فى صـــورة واضحة ؛ فترك الملك قصره ولاذ مع عائلته بحمـــى الجمعية تعصمه وأهله ؛ وفيما هو غائب عن قصره ، دارت معركة حامية الوطيس بين حراس القصر وقوات الشعب ، تقدم الشعب بعدها الى الجمعية يطلب عزل الملك واعـلان الجمهورية • الا أن

هذا كان اجراء يستحيل فى ظل دستور ١٧٩١ ؛ ومن تم فقد تقرر وقف الملك عن مباشرة سلطاته وانتخاب جمعية جديدة الغرض منها تقرير التغييرات المطلوبة فى الدستور ... وقامت الجمهورية ولم يبق الا اعلانها .

وزارة جديدة :

عينت الجمعية أول كل شيء وزارة جديدة تولى شئون الداخلية فيها رولان وتولى شئون العدل دانتون وحاول لافاييت أن يحتج ؛ ولكنه سرعان ما أدرك خطورة موقفه ، فترك عمله فى الحرس الوطنى ، وعبر الاطلنطى ، حتى يسدل الستار على سيرة حياته فى قصة الثورة . وفى باريس كان المجلس البلدى أقوى شأنا من الجمعية التشريعية التى كانت تلفظ أنفاسها الأخيرة . وفى المجلس ، كان روبسبيير هو القوة الفاعلة : طلب أن يكون النظر فى قضايا الاجرام ضد الدولة من شأن المجلس ، فتمت الموافقة على ذلك ؛ كما تم تعيين لجنة رقابة ، وهى ضرب من لجنة تنفيذية رأسها المفكر مارا .

الموقف ابان الحرب :

وساءت أنباء جبهة القتال يوما عن يوم ، وعاد التوتر تزداد حدته فى باريس ، حتى طلب دانتون الاذن

بتفتيش منازل من يرتاب فى عدائهم للثورة · فاكتظت السجون بنزلائها ، وفيهم البرىء ، وفيهم المتآمر ، وكلهم موضع ظن بمناهضة اليعاقبة ، وتكشف لنا قولة دانتون اذ ذاك حقيقـــة الموقف : ـ « ان الـــدولة تقف بين عدوين : عدو فى الخارج وعدو فى الداخل » ·

مارا والقتل الجماعي :

وفى ٢ سبتمبر ، بدأت حركة بث الرعب فى قلب العدو ، فألحقت بالسجن محكمة تقضى بالاعدام فى الحال؛ وماهى الا أن غصت ساحات العاصمة بأجسام من أزهقت الثورة أرواحهم ، ذلك القتل الجماعى الذى يعتبر مارا المسئول الأول عنه ، مهما قيل من أن سوء أنباء المعركة الخارجية ألهب عواطف الفرنسيين الى حد الانغماس فى هذا الانتقام الأعمى الشامل الذى بلغت بشاعته حدا جعل معه قادة الثورة يبرئون ساحتهم من وزره ·

وكذلك شهد شهر سبتمبر أحداثا هامة أخرى · فحين بدا انتصـــار الحلفاء على فرنســـا قاب قوسين أو أدنى ، كانت تفعل عوامل الخلف فعلها فى اضعاف شوكة الحلفاء ؛ وتذهب بروعـــة نصرهم ؛ فقد عاد الوفاق بين بروسيا والنمسا يتحطم على صخرة المطامع البولندية ، فلم تبلغ قوة الحليفتين أوجها التقليدى · بيد أنه مع

ذلك بقى الطريق مفتـــوحا أمام الجيش الغازى الى قلب العاصمة الفرنسية • وهم العدو يقصف بمدفعيته مابقى من المقاومة الفرنسية فى طريقه • ثم راح يقوم بحركة التفاف دائرية ولكن ليواجهه جيش فرنسى صغير على تل فالمى يفلح فى رد الهجوم عليه ويتطور الموقف فى مصلحة الفرنسيين ، فينتصرون • ويقول جوته الذى كان حاضرا هنـــاك : « من هذا اليوم وهذا المكان تؤرخ حقبة جديدة فى الدنيا » •

انتخاب المؤتمر :

بدأت انتخابات المؤتمر وقت قيام مذابح سبتمبر • واعتقد الناس أول الأمر أن نتيجة هذه الانتخابات تعنى انتصـــارا كبيرا للمعتدلين ؛ ومع ذلك فقد امتنع كثيرون عن التصويت • وفى تشكيل هذه الهيئة الأخيرة كان لليعاقبة خمسون عضوا وللجيروند مائة وعشرون عضوا ، وما تبقى من الأعضاء ويربو عددهم على ستمائة ، لم يكن ينتمى واحد منهم الى حزب بعينه • عين المؤتمر الوزارة ، وأسلم السلطة التنفيذية الى لجان •

مصير الملك :

كان أول أمر يقتضى البت فيه هو مصير ملك البلاد• وجاء القرار على جنـــاح السرعة ، فقد أعلن المؤتمر الغاء

الملــكية واعــلان الجمهــورية فى ٢١ سبتمبر بموافقة اجماعية ثم جاء دور مسألة الملك · بدا بادىء الأمر أن ليس هناك أساس قانونى تمكن محـاكمة الملك بمقتضاه ، فقد قرر الدستور أن الملك يفقـد العرش اذا أخفق فى حرب خارجية ، وهاهو ينال جزاءه فيعزل من منصبه · فماذا بعد ذلك ؟ ولكن الحزب السائد فى الهيئة الجـديدة ، لم يقبل بقانونية الموقف ، وسرعان ما صيغ قرار الاتهام ووجه الى الملك فى ١١ ديسمبر ، وتضمن القرار تهما كثيرة ، أهمها التآمر على سلامة البلاد ومحـاولته هدم الدستور · طلب الملك الدفاع عن نفسه أمام هيئة المؤتمر التى كانت تتولى محاكمته ، الا أنه كان دفاعا لا غناء فيه ؛ فقد تقرر اعدام الملك الذى تم فى ٢١ ينـاير عــام ١٧٩٣ فى مكان يدعى سابقا «ميدان لويس الخامس عشر ، ويدعى الآن « ميدان الجمهورية » ·

حقيقة شعب وملك :

وقد يطيب للقارىء هنا أن يقف قليــلا ويلقى على نفسه هذا السؤال : هل أخطأ المؤتمر من جميع الوجوه فى الحكم على الملك ؟ الواقع الذى يســتقيم مع منطق الثورة أن لا · ونرجع القهقرى عبر السنين القلائل التى انتهــت باعــدام صاحب العرش الفرنسى لنرى ماذا كان

من أمر الشعب حيال الملك وما كان من أمر الملك حيال شعبه ؛ وكيف كان يصعب ان لم يكن يستحيل أن ينتهى الموقف فى آخر الأمر الى غير ما انتهى اليه ٠

لقد ظل الشـــعب يحب مليكه قرابة عشرين عاما ، وتشهد الثورة فى أيامها الاولى ، بل والى نهاية طورها الاول أن الشـــعب لم يكن يريد غير ملك يرعى حقوقه ، أو لم يعلنه الدســتور « ملك الفرنســـيين بمشيئة الله وارادة الشعب » ؟ ! ، ذلك الدستور الذى نص فى الوقت نفسه على حقوق الانسان الفرنسى وغير الفرنسى٠ أو لم يعد الشعب فعرض على مليكه بعد هربه أن يوافق على الدستور فيبقى ملكا للبلاد وعفا الله عما سلف ؟ ! هذه وغيرها حقائق لا تقبـل الجدل ، تذهب جميعـا للدلالة على صدق حسن نوايا الشعب تجاه مليكه الذى دعت طبيعته وتصرفاته الى ما أسلمه فى ختام الأمر الى المقصلة ٠ من ذلك ما ســبقت الاشارة اليه من ضعف شخصيته وضعف ارادته ، ذلك الضعف الذى دعاه أن يسمتع لنصـــائح خطرة ، وخصوصا من زوجه النمسوية مارى انطوانيت ، وحدا به الى دس الدسائس للثورة فى ضعف وخيانة ، فهو قد أذن لشعبه أن يثور ، وأن يثور عليه آخر الأمر فيعزله أولا ثم يســـجنه ثانيا ثم يعـدمه فى النهاية ٠

كان مستقبل الجمهورية يتوقف على الحرب وما تتمخض عنه • وقد تلقت فرنســا أشد صدمة بعد اعدام الملك ، فقد أعلنت انجلترا الحرب عليها ، تلك الحرب التى تعددت أسبابها • فقد أثار الرأى العام الانجليزى قتل الملك الفرنسى ، لا سيما وقد جعل الانجليز يصغون الى بلاغة بيرك وروعة بيانه ، وهو يشن هجومه الساخط الشديد على الثورة وأهدافها • ثم ان الفرنسيين كانوا قد أحرزوا انتصــارات كثيرة ، فهم قــد عبروا الراين ودخلوا بلجيــكا ، وهو أمر أعظم خطرا وأبعد أثرا من كل أمر ســـواه • وازداد ســـوء الموقف من وجهة النظر الانجليزية ، حين أعلنت الثورة بعد أن مكنت لنفســها داخل بلدها ، عن استعدادها لشد أزر كل حركه وطنية تدعو الى الحرية • فالفرنسيون اخوة الشــعوب جميعا • وكان هــذا فى رأى الانجليز ، دعــوة صريحه الى كافة شعوب الأرض بالنهوض فى وجه حكوماتها التى يثقل سلطانها عليها • وفى النهاية تصــادم مصالح البلدين وخاصــة فى ميــدان التجارة • ومن ثم لم يثر عجبا أن تطرد انجلترا السفير الفرنسى فور سماعها باعدام الملك، وأن تستشف فرنسا هذا الموقف من نسيج الأحداث ، فتسرع باعلان الحرب عليها ، وعلى حليفتها هولندا اللتين انضمت أسبانيا اليهما بعد قليل •

المؤتمر يعد للموقف :

على هذا النحو ، تعين على فرنسا ان تواجه حلفا أوربيا قويا ضخما تنخرط في سلكه دول كبرى - بروسيا والنمسا وبريطانيا ، وترفده دول صغرى هي هولندا وسردينيا وأسبانيا . وقد شهد ربيع عام ١٧٩٣ تفاقم الخطر وتراكم الكوارث في مختلف الجهات ، ولم يلبث أن امتد شبح الخطر الى الداخل فنشب ما يشبه الحرب الأهلية فى الحركه التى قامت جنوب نهر اللوار .

وفي وسط هذه المدلهمات جميعا ، اتخذ المؤتمر عدة قرارات حاسمة . عزز الجهاز الحكومي الذى عمل على القضاء فورا على أعداء الثورة ، فشكلت محكمة الثورة فى ٢٩ مارس عام ١٧٩٣ ، وعلى أثرها شكلت لجنة الأمن العام وهى الهيئة التى تولت أمور فرنسا فى العامين التاليين ، والتى يرجع الفضل اليها فى كل ما أحرزت فرنسا من انتصارات وخلاص ، وكانت هذه اللجنة تتكون من تسعة أعضاء بيدهم السلطة الفعلية . كذلك أنشىء نظام « الوفادة التمثيلية » وقوامه أناس يبعثون الى أنحاء البلاد المختلفة يجمعون المال للحرب فى ظاهر الأمر ، ويمكنون للحكومة المركزية وسيادتها في باطنه . وهكذا نرى فرنسا ترتد الى نظام الحكومة المركزية فى الحكم مرة أخرى ، تحت تأثير الحرب ، ذلك النظام الذى كانت تعمل الملكية به فى القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر .

كان الجيروند هم الذين أتوا بلجنة « الأمن العام » هذه ، ولكن أعضاءها كانوا من اليعاقبة وعلى رأسهم دانتون ! وهو شخصية غريبة الأطوار فعلا فى تاريخ الثورة ، وكان ينظر اليه الكثيرون على أنه رجل يغرم بالدم المراق . ولكننا كلما أمعنا النظر فيمجرى حياته ، أطلت علينا شيئا فشيئا حقيقته ، وهى أنه مع ميله الظاهر الى اراقة الدماء عند الحاجة ، كان داعية الى الرحمة واحترام القانون وغير ذلك مما يسم الرجل الأمين ، وذلك حتى لا تتردى الثورة فى مهاوى الفوضى ، وتنغمس فى شهوة اراقة الدماء ، مما كان يضمر القدر للثورة فى غدها القريب . ومن ثم فعلى الرغم من تبعية دانتون الحزبية لليعاقبة ، يحكى لنا التاريخ أنه كان يخطب ود الجيروند من أجل هذه الغاية مرة تلو أخرى ، ولكنهم كانوا يصمون آذانهم عن ندائه ، مما أدى الى الصدام العنيف بينهم وبين اليعاقبة فيما بعد ، وأقصد ذلك الصراع الذى أسلم السلطة آخر الأمر الى أيد قليلة جعلت تتناقص وتتناقص حتى غدت واحدة ـ هى يد نابليون بونابرت .

وجدير بالذكر هنا ، أن موقف الجيروند من الثورة جعل يتدهور تدريجا ، تدهورا ساعد عليه بعد القوى المعضدة للجماعة عن العاصمة الفرنسية ، حتى انتهى الأمر ـ رغم نجاحهم فى تقديم مارا اليعقوبى الى محكمة الثورة ـ الى القبض على معظمهم وتقديمهم للمحاكمة ، ومن بعدها ـ المقصلة .

حكم الارهاب يبلغ أوجه :

وبسقوط دولة الجيروند ، يمكن القول ببلوغ حكم الارهاب الذى بدأ فى أغسطس عام ١٧٩٢ أوجه . ومعنى هذا الكلام بعبارة أخرى اعتلاء قلة معينة السلطة فى البلاد ، قلة همها الأول ، وقد ألقت وراء ظهرها بالتقاليد الدستورية ، الدفاع عن سلامة البلاد . لقد رأت الدنيا أكثر من وجه حكم ارهاب ، وشهدت أكثر من حكومة تقف على قدميها عن طريق العنف وبث الرعب فى قلوب أعدائها ، ولكن وجه المفارقة الحقيقية فى موقف اليعاقبة الارهابى هو أن حكمهم وان اتكأ على المحكمة الثورية ، ومن ورائها المقصلة ، انما كان باسم الديموقراطية وسيادة الشعب . ولم يكن يثير غرابة بعد ذلك أن يتقلص ظل سلطان المؤتمر فيتناقص أعضاؤه الذين جعلوا يتوارون عن الأنظار شيئا فشيئا خشية خطر يذهب بحياتهم فى يوم قريب . وبقيت السلطة الفعلية فى يد اللجان ، تلك اللجان التى لم تكن تجد بدا رغم ذلك من عرض قراراتها النهائية على المؤتمر للتصديق عليها .

واذن ، فقد كانت « لجنة الأمن العام » هي اللجنة الهامة الوحيدة فى فرنسا كلها . وقد بقى دانتون رئيسا لها الى يوم ١٠ يوليو ، فكان يخلق حاجته من الرجال من بين الصفوف ، ويمد الجيش بحاجته من السلاح بما يجمع من مال الأهلين ، وكان يفعل كل شيء يضمن سلامة كيان

البلاد ، فاذا جاء يــوم ١٠ يوليو ، وجرى التقليد العادى الذى يقضى باعادة تعيين اللجنة ، اذا المؤتمر يحذف اسم دانتون من بين أعضــاء اللجنة الجديدة التى وافق عليها ويحل محـــله روبسبيير الذى عرف عنه اتبـــاع مذهب روســـو . ومنذ ذلك اليــوم الى يوم رحل عن الدنيا ، واسمه ، أى اسم روبسبيير ، أبرز الاسماء فى سجل تاريخ الثــورة . بقى الرجل مثاليــا الى النهاية ، يحلم ببناء اجتماعى تنبغى اقامته فى فرنسا ســاعة تزول الأخطار الماثلة ، بناء يقوم على الفضيله ويســتند الى الدين ويقر السلام فى الارض ، ونعله كان(١) يرى فى موجة الارهاب الســائدة وقتئذ سحابة صيف عما قليل تنقشع فالقضاء على أعداء الثـــورة فى الخارج والداخل أمر لا فكاك منه قبل كل شىء .

الارهاب متصل

أتى اليعاقبة عــام ١٧٩٣ بدستور جديد ديموقراطى الطابع للغــاية ، الا أنه لم يكد يعرض ويوافق عليه حتى عطل . ففى غضون هذه الأيام القاتمة ، كانت تقوم محكمة الثورة بعمل شاق كثير يعينها عليه قانون الاشتباه الذى

---

(١) لم يكن روبسبير هو الذى ابتكر الارهاب ولا كان أداته ، وانما كان يرفع من شأن حكومة الثورة ويمجدها حتى ظن النــاس بروعة بيانه أن الارهاب ليس شيئا بغيضا وحشيا ، بل أمرا معقولا يقضي غرضا .

نفذ فى سبتمبر عام ١٧٩٣ ، فغصت السجون بنزلائها ، وتضـخم عمل المحكمة حتى أرهق قضاتهـا ، وكان من ضحاياها فى شهر اكتوبر من هذا العام مارى انطوانيت ملـكة فرنسا السابقة ، التى كان يرى دانتون الابقاء على حيـاتها حتى يسـاوم العـدو عليها ، ولكن فورة الشعور الوطنى وقتئذ فوتت عليه الفرصه الذهبية . فقد كانت الملكة السابقة عدو الثورة رقم ١ فى نظر الناس ، وانما كانت تتبع زوجها الى مصير واحد. كذلك أعدم دوق أورليانز وهو الذى عطف على الثورة أول عهدها بالحياة ، وأفسح قصره للثوار . وتبعه فى طريق القبر مدام رولان ، رأس التفـكير الجيروندى ، وأعقبها بايلى أول رئيس للجمعية الوطنية جزاء أمره باطلاق النار على الشعب البرىء يوم أعلنت الجمهوريـة ، ومن بعـد هؤلاء كثرة من ضـباط الجيش .

حكومة قوية

اذن ففى فرنسا الآن حكومة عاتية ماضية العزم ، قوية التصميم ، ويستعر أوار الحرب الأهلية هنا وهناك فى أنحاء البلاد اثر سقوط الجيروند ، فتتألب أقاليم كثيرة على حكومة باريس ، ويتخذ أهل الريف أهبتهم للانتفاضة الكبرى من أجل القضاء على اليعاقبة ، وتدور معـارك

ومعارك لا يبقى في الذكرى منها سوى طولون التي بز فيها نابليون أقرانه في جيش الدولة فدانت له المدينة العاصيه. وطيلة هذه الفترة من الزمن لم تكن الحرب الخارجية قد وضعت أوزارها ؛ فقد اخترقت جيوش الأعـــداء أرض البلاد في ثلاثه مواضع ، يشد أزرها ويضعف مقاومتها ثورات الأقاليم على الحكومة ؛ حتى شاعت نبوءة قـرب سقوط الثورة . بيد أنه لم يكن الانهيار وانما الانتصار هو الذى ينتظر فرنسا على طريق الحيـــاة في مستقبلها القريب . فكيف كان ذلك ؟

كانت فرنســـا تتمتع في هذه الآونة الحرجة من تاريخها بحكومة قوية فعالة حقا ، قد عقدت عزمها على ضبط الأمور والقبض على ناصيتها ؛ فتشكيل لجنة الأمن العام ودانتون على رأسها وقيادة كارنو الحملة ، كل أولئك جعل انتصار الجيوش الفرنســية ممكنا انسانيا لا معجزة الهية . فدانتون لم يزود الجيش بطاقة جديدة فحسب ، وانما زوده كذلك بسلاح أفضل من سلاحه السابق ونظام وتدريب وتكتيك على أسس جـــديدة ؛ وغير ذلك من عناصر النجاح في كل صراع مسلح ؛ ولنا أن نذكر هنا مبدأ الحرب الفرنسي الأساسي وقتذاك : « الهجوم المستمر خير من الدفاع السلبي . » كذلك دوت صرخة دانتون : «الجرأة ، الاقدام» ، وكانت شعار الجيش في كل حركاته . كما رأى هـذا الجيش نفســه ضباطا كبارا جددا أمثال هوش وجوردان ومورا ، وجلهم من أوســاط الناس ولهم

حظ من الدربة السابقة فى جيش فرنسا ، الا أن المجال انفسح الآن أمام عبقريتهم حتى تتالق وتروع أعداءها • وقد أصاب جنود الجيش مس من حماسة ضباطه ، والحماسة تلعب دورها فى الحروب دائما ، وهى هنا حماسة مردها الولاء للثورة دون الملكية ، وحب فرنسا دون الذات الشخصية • ومهما يكن من شيء فلم تكن هذه الحماسة غير واحدة من صفات ومزايا كثيرة اتسم بها الجيش الفرنسى آنذاك وعبدت طريقه الى النصر •

موقف اليعاقبة :

ونولى أنظارنا الآن الى الصراعات الداخلية بين جماعة اليعاقبة • رأينا من قبل أن اليعاقبة قد دانت لهم الأمور، ولكنهم الآن قد انقسموا على أنفسهم انقساما عميقا • لقد رأينا روبسبيير يحل محل دانتون فى « لجنة الأمن العام »• ولكن هذا لم يفقد الرجل شخصيته السياسية ، فبدأ يدعو فى أروقة المؤتمر الى الاخذ بالحسنى فى كل شيء ، يناصره فى هذا ديمولين بطل انباستيل ، واحد طليعة القائلين بالثورة على النظام القديم ونصيرها بقوة الكلمة ، منطوقة ومكتوبة • لقى اتجاه الزعيمين السابقين قبولا حسنا كبيرا فى صدور كثير من رجالات المؤتمر ، وان لم يقدر لأحدهما أن يوجه أحداث الثورة الكبرى • كذلك كان هناك المثلث الثورى المعروف الذى يؤلف أطرافه روبسبيير وسان جيست وكوتون ، وثلاثتهم أعضاء فى

« لجنة الأمن العام » ؛ وينزعون الى ضبط الميزان السياسى الفرنسى في الداخل أكثر مما يهتمون بالحرب الخارجية ٠

كان روبسبيير شخصية يحبها شعب باريس الحب كله ، وكانت تناصره كثرة من أهلها ، أقوياء مخلصون ٠ وانما يمكننا أن نفهم مأساة حياة هذا الزعيم وسبب سقوطه ، حين ندرك أنه لم يكن هناك بد من أن يعلن ما كان يضمره من خير لوطنه وسط جو من العنف والقتل خيم على البلاد٠ وانما جاء سقوطه سريعا لاحيلة له فيه ولا قدرة على الحيلولة دونه لأنه كان رجلا لم تقو صفاته الطيبة على اخفاء مواطن الضعف فى تركيبه الشخصى ؛ فقد كان جبانا ومن هنا كان ، شأنه شأن كل جبان ، ينزع الى القسوة ، (١) وكان مغرورا ، وزاد من غروره ثقة صحبه به ؛ ومن هنا نعرف مرة أخرى كيف قصر أجل « نبى الانسانية وولى روسو » هذا ، فقصر معه عمر حكم الارهاب الذى لم تر البلاد مثيلا له فى بشاعته ٠

هيئة أخرى بارزة :

والى جانب هاتين الجماعتين يتعين علينا ذكر جماعة ثالثة اتخذت المجلس البلدى فى باريس قاعدة لها ، وتضم

---

(١) لم يكن روبسبيير يريد الارهاب ولكنه دفع عجلته أقوى من دى قبل وخاصة فى باريس ، حتى يخافه الكل فتدين له الأمور ، يستطيع تنفيذ مآربه ، وخاصة تحقيق فكر روسو ، الذى شغف به الشغف كله ،

من شخصيات العصر البارزة شومت وهيبير ، وكان هذا الأخير خليفة مارا في قيادة الطبقات الدنيا فى باريس ٠ وعن هذه الجماعة المفكرة صدرت اجراءات كثيرة بالغة الأهمية ؛ ففضلا عن الاصلاحات التي دعت اليها ، نشأت فى ظلها فكرة النظام العشرى فى الموازين والمكاييل الذى لم يلبث أن ساد العالم جميعا ٠ وكانوا فى كل مايذهبون اليه يقولون انهم انما يتبعون ماهو منطقى وطبيعى فى آن معا ٠ ومن ثم نراهم يضعون تقويما جديدا ؛ فقد كان يسود شعور عام بأن الثورة ولاجدال تمثل بداية حقبة جديدة فى عمر الانسانية ، مما تدل عليه عبارة روبسبيير المشهورة : « ان فرنسا تتقدم أوربا بألف عام » ٠ جعلوا أول أيام السنة يوم اعلان الجمهورية فى سبتمبر عام ١٧٩٢ ؛ وتناولوا الشهور بالتغيير ، وقل مثل ذلك فى الأسبوع ؛ فالأسبوع بأيامه السبعة فى أصله الشرقى وطابعه الدينى قد حل محله تقسيم جديد قوامه عشرة أيام آخرها يوم عطلة ٠ وقد بقى هذا النظام قائما حتى تولى نابليون منصب امبراطور فرنسا عام ١٨٠٤ ، ثم نبتت بعد ذلك فكرة دين جديد يعتنقه الناس بديلا عن المسيحية ؛ وخاصة المذهب الكاثوليكى ، عقيدة الأغلبية آنذاك ٠ وساعد على نمو الفكرة ماساد وقتذاك من شعور يقر بأن الثورة لا سبيل الى تمامهـــا بغير تغيير دينى ، مما دعا اليه روسو فى رسالته الكبرى : «العقد الاجتماعى» وقد بدأت الحركة القائلة بدين جديد تدور عجلتها فى الاقاليم

قبل باريس ثم تم الاحتفال فى كنيسة نوتردام فى العاشر من نوفمبر بالدين الجديد ـ دين عبادة العقل ، وعندما حل يوم ٢٤ نوفمبر كانت قد أغلقت ٢٤ كنيسة فى باريس؛ وامتد تيار الحركة فشمل الأقاليم حتى قدرت الكنائس المغلقة فى فرنسا بـ ٢٤٠٠ كنيسة ، استحالت كلها معابد لدين العقل الجديد • على أن هذا الدين الحديث لم يكن له من الشعائر وغيرها ماللأديان الأخرى ، وان أدى الى الفرقة بين الناس مما بلغت آثاره ونتائجه مدى بعيدا •

من آثار الفرقة :

حدث هذا كله فى ظل اليعاقبة الذين كانت تأتمر فرنسا الآن بأمر ثلاث شيع منهم على ماسلف الذكر ؛ وكانت الأعوام التى تلت تحمل طابع الاضطراب الذى كاد يصل الى حد الفوضى • ولا عجب فقد دعا الخلاف فى الرأى الى هذا الانقسام بين جماعة ألف بين قلوبهم الصراع من أجل فرنسا ، وآية هذه الحقيقة هنا ماحل بدانتون وديمولين وغيرهما من أبطال الثورة •

نهاية دانتون :

فقد ذهب دانتون اليعقوبى الكبير لأنه جعل يدعو الى الحسنى ولم ير المضى فى طريق الارهاب شأن غيره ،

بل شأن نفسه من قبل ؛ فهو اذن رجل قد لانت قناته :
وفى هذا اللين ميل الى التآمر على أسلوب حكم قائم ·
ألم يـدع من قبـل الى الارهاب حتى تذهب الملكية وكان
له ما أراد ؟! لم يكن روبسبيير يطمئن اليه فدعا الى اتهامه
فى أخريات مارس عام ١٧٩٤ · ووجه اليه المؤتمر تهمة
الخيانة العظمى ، فقيل انه اتصل بالأعداء ، ثوار الجنوب،
فى نورماندى ، ووجـه اليه المؤتمـر بعد هذا تهـمة
الرشوة (١) ، ولم يهيىء له فرصة للدفاع عن نفسه · قال
دانتون يومها متحديا لا مدافعا : « لقد كنت أخدم أمتى
دائما ؛ وسأنام فى غدى فى ظل المجد » · قبض عليه ،
أى على دانتون فى ٣٠ مارس عام ١٧٩٤ ؛ ونفذ فيه حكم
الاعدام فى ٥ ابريل من العام نفسه ، وهو اليوم الذى
أعدم فيه كذلك ديمولين ، بطل الباستيل ·

الدين الجديد :

قلنا قبلا ان فرنسا اتخذت لنفسها دينا جديدا ،
هو دين عبادة العقل · بيد أن هذا لم يكن يتفق ومايراه
روبسبيير الذى كان يتبع روسو فى رغبته فى شـكل من
الدين يقول بالله ، ثمة عقيدة بسيطة لا تحير العقول ·

---

(١) سبق أن اتهم دانتون بالرشوة فقد قيل انه ساوم على اطلاق سراح الملك يوم كان هذا سجين الشعب ، لقاء ٦ ملايين فرنك، وتؤكد الدراسة التاريخية أن الثورة أثرت جيب الفرنسى الكبير ، الذى لم يرد الدفاع عن نفسه وان انكر عليه المؤتمر حقه الطبيعى هذا ..

والآن وقد آلت اليه مقاليد الأمور فى فرنسا ٠ اذا الهيئة التى أعلنت من قبل عبادة العقل دينا ، تعلن تغير هذا الدين والاعتراف بعبادة « الكائن الأعلى » ٠ وتم الاعلان الجديد فى حفل كبير أقيم يوم ٨ يونيو عام ١٧٩٤ نصب فيه روبسبيير رئيسا لهيئة المؤتمر وسط مظاهر الفرح والارتياح بالدين الجديد والعهد الجديد ٠ ولئن رضيت كثرة من الفرنسيين عن هذا الحفل ، فلعلها فعلت بدافع الأمل فى أن تشهد خاتمة حكم الارهاب ، الذى قدر له أن يؤرق جفن الشعب بعد ذلك فترة ما ٠

الوضع الداخلى :

ولما توارى دانتون عن مسرح الأحداث ، كان هم كارنو وصحبه من أعضاء لجنة الأمن العام دفع الغاصب الأجنبى من الارض الفرنسية وتعقبه الى أرضه هو ٠ أما روبسبيير وسان جيست وأعضاء اللجنة الآخرون ، فلم يروا التدخل فى الشئون الحربية ، وكان سان جيست يحلم مثل زعيمه وصاحبه باعادة بناء فرنسا على أساس مبادىء روسو من ناحية ، وعلى نسق حضارة الاغريق وروما من الناحية الأخرى ٠ فالمجتمع الفرنسى فى صورته المفضلة ، مجتمع بسيط ، ينعم بالسلام ويدعو اليه ، يزرع الارض التى توفر حاجات أهلها ، هم التربية فيها تكريس الفرد لخدمة الجماعة ، فهو مجتمع تغاير صورته من كل الوجوه صورة المجتمع الحالى التى تحدرت اليه من القرن الثامن عشر ٠

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فان عجلة الارهاب لم تتوقف • فقـد ســاء الحال عن ذى قبل عند صدور قانون فى باريس تغيرت بمقتضاه اجراءات محكمة الثورة، وهو قانون قضى على حيـاة الكثيرين ، وذلك على أساس من الشـبهة التى لا تكاد تعـوزها اقامة الدليـل على صحتها ؛ فقدم كثيرون قربانا للقانون الجديد •

نهاية روبسبيير :

بدأ روبسبيير حملة نكدة الطالع عليه يوم ٢٦ يوليو بخطاب رائـع على عادته فى قاعة المؤتمر ، الا أن عدم تحـديده أشـخاص المقصودين بهذه الحملة حرك الشك فى قلوب الكثيرين فجمعهم ضده • ولو أن روبسبيير قد حدد فى بيـانه أناسا بعينهم لتغير الأمر • ولكن غموض خطابه أثار الشكوك ، ولمـا أعاد الرجل خطابه فى نادى اليعـاقبة وحدد موقفه ، وعاد الى المؤتمر يريد أن يفعل المثل ، كان قد فات الأوان ، فلم يسمح كثيرون من أعدائه بسماع الخطاب ؛ وأخذت ضوضاء بالغة تغرق كلماته فى لجتها وتفوت عليه الفرصة ، حتى فرصة العمل من أجل حياته الشخصية ، فقد تقرر آخر الأمر اعلان القبض على روبسبيير وسان جيست وأتباعهما المباشرين • وما هى الا أن نقل روبسبيير وصحبه الى السجن ؛ وبدت النهاية تطل برأسـها • بيد أنه لما كانت السجون تأتمر بأمر المجلس البلدى الباريسى ، وكان لروبسـبيير سلطانه الشخصى

على هذا المجلس ، فقد أصدر ، أى المجلس ، أمرا باطلاق سراحه ، فلما اجتمعت هيئة المؤتمر فى المساء ، ووجدت عدوها الكبير فى عصمة من كيدها ، أدركت لتوها أن الأمور لم تعد تقضى بالقـــرارات أو أصوات الأغلبية ، وانما بقوة السلاح • هنا أعلنت هيئة المؤتمر أن روبسبيير خارج على القانون ، وأنشأت بعد ذلك تعد عدتها لخوض المعركة الأهلية التى قدر لها النصر فيها ، وسار روبسبيير آخر الأمر الى المصير الذى بعث اليه المئات !

نهاية حكم الارهاب :

ومــع مـــوت روبسبيير ، بدأ حكم الارهاب يلفظ أنفاسه الأخـــيرة • ولم ؟ لأن الموقف فى الداخل جعل يضطرب أشـــد الاضطراب ، ولأن حكم المقصلة لم يكن بوسعه أن يظل سائدا فى فرنسا القرن الثامن عشر ، ولأن الرأى العـــام الفرنسى فى باريس أخـــذ ينفر من الارهاب ولا يرغب فيه ، الا أن هناك سببين رئيسيين لم يكن يمكن لحكم الارهاب بقاء معهما ؛ الأول أن الخطر الأجنبى قد زال ، وأن فرنســـا كانت تقف الآن موقف المهاجم لا موقف المدافع على نحو ما كان عليه الحال قبلا ، وساد بين الناس شعور بالثقة والفخار ، حتى أن المؤتمر رأى أن من خطل الرأى ، بل والاجرام أن يتصل حصد المقصلة أرواح البشر ، والثانى ، أنه منذ سقوط روبسبيير والمعركة قائمة بين المؤتمر والمجلس البلدى ، بين من يمثلون فرنسا

ومن يمثلون باريس ، وهى المعركة التى أراد فيها المجلس القضاء على المؤتمر ، فنساء القـــدر أن تكون الغلبة لهذا الأخير • واتخذ المؤتمر أهبته ليؤمن السـلطة التى حصّل عليها بشق الأنفس •

ســـقط روبسبيير فاغلق المجلس البلدى أبوابه الى الأبد وآلت سلطاته الى لجان ومايشبه اللجان ، كما اعيد بناء جهاز الدوله ، فقد أغلق نادى اليعاقبة ، رمز الثـوره الداميــه ، الى غير رجعــه ، وحددت ســلطات لجنه الامن العام • ومع شتاء عام ١٧٩٤ ، كان حكم الارهاب قد قضى نحبه فى فرنسا ؛ وأطلق سراح خمسه وسبعين عضوا من الجيروند ، لم يلبثوا أن عادوا الى المؤتمر يباشرون اعمالهم من جديد فى وجه بقايا الارهاب القديم • وأقول بقـايا الارهاب ، لأن العاصفه العاتيه لم تكن قد استنفدت قواها جميعا ، ففى شتاء ١٧٩٤ ، قامت حركة من الضرب القديم فى باريس تطلب الخبز ، وتطلب مع نقمة العيش العمل بدستور ١٧٩٣ • أخمد المؤتمر الحركة ، ودانت له الامور مرة أخرى ، وقام يقضى على بقية ارهاب السنين الماضية، فأعيد تنظيم الحرس الوطنى ، وردت أملاك ضحايا المقصلة الى ذويهم • على أنه فى يوم ١٠ يونيو ، وقع حادث ذهب بأمل رواد أنصار الملكية السابقة • فقد قضى ابن لويس السادس عشر نحبه فى السجن ، وكان دعاة الملكية يرون فيه لويس السابع عشر • ولا يهمنا هنا ماحدث ، لا جملة ولا تفصيلا ، وانما الذى يهمنا أنه برحيل هذا الصغير عن

الدنيا ، آل عرش فرنسا الى أخي الملك السابق الكونت دى بروفنس ، الذى كتب له تولى حكم فرنسا عام ١٨١٥ ، بوصفه لويس الثـامن عشر ، والذى كان يعمل الآن فى جيش الأعداء ضد فرنسا ٠

الدستور الجديد :

في ضـــوء هذه الظروف التي يســـودها القـــلق ويكتنفها الاضطراب ، قضى العقل أن يوضع دستور جديد يوضح معالم الطريق ، ويحدد طبيعة الحكومة فى فرنسا ، ويكسب من الخارجين عليهـــا من يمكن كسبه منهم الى صفها ٠ ويعرف هذا الدســتور بدســتور الســنة الثالثة الذى بقي حتى عطله أو ان شئت فقل ألغـــاه نابليون عام ١٧٩٩ ٠

نص الدستور الجديد على حقوق الانسان ، كما نص على واجبات المواطن ، كذلك قرر الدستور حق التصويت على أساس مدة اقامة معينة ، ودفع ضرائب معينة ؛ وقال ببرلمان من مجلسين ، لا تقل سن عضو الأول منهما عن ثلاثين عاما ، ولا تقل سن عضو الثانى عن أربعين ، ويمكن لهما عقد اجتماعاتهما خارج باريس ، كما احتفظ الدستور لمجلس الشيوخ بحق الفيتو حيال القوانين الصادرة من مجلس النواب ، وذلك حتي لا يتأثر بسلطان شعب باريس الذى كان بعيد الأثر في ســنوات الثورة الفعلية والذى ساعد علي تولى نابليون السلطة ٠ أما رأس الدولة فقد

رئى ألا يكون ملكا ولا رئيس جمهورية ، ولا حتى قنصلا، وانما لجنة تدعى « لجنة الادارة » من خمسه أعضاء ، تحل محل لجنة الأمن العام ، ويخرج منها عضو كل عام ، غير أن اصرار المؤتمر القائم على تمثيله فى البرلمان الجديد بنسبة ثلثى أعضائه ، دعا الى اضطرابات جديدة فى باريس ، لم تلبث أن اتخذت شكل الصراع المسلح • ومرة أخرى ، عمد المؤتمر الى قوة السلاح ، فقام الجيش بالدفاع عنه وعن قصر التويلرى ، يشترك معه نابليون الذى برز وتألق نجمه فى معركة طولون سالفة الذكر • وكانت معركة فاندرمير بين قوات الشعب وقوات الحكومة • فتح الجيش نيران مدفعيته على الشعب فانتصر ، وان خسر نابليون فى هذه الموقعة مدفعا •

ولعل من أهم حقائق هذه الفترة ، أن الحكومة التى قامت أساسا للحفاظ على حريات الشعب أصبحت الآن تدافع عن وجودها فى مواجهة الشعب ورغم أنفه ، ومن هنا كانت لهذه الحركة الأخيرة دلالتها الكبيرة ، تلك الدلالة التى يعمق معناها عندما نعلم أن نابليون نال منصب قائد جيش فرنسا ، اعترافا بفضله وبالدور الذى لعبه فى اخماد الحركة المناهضة ، فكانت الترقية أول درجة على السلم الذى ارتقى به الى عرش الامبراطور فى فرنسا فيما بعد •

وفى ٢٦ أكتوبر انتهت أعمال المؤتمر وفضت هيئته •

الموقف الحربى :

ونقترب من نهاية الكلام عن طور الثورة الأحمر ، حين نذكر احداث الموقف الحربى • فقد جرت معارك بحريه انتصر فيهـــا الانجليز على الفرنســـيين ، الا أن التفوق الانجليزى التام فى البحر كان يقابله تفوق فرنسى تام فى الارض ، فلم تفو قدم جنـــدى أجنبى أن تطأ ارض فرنسا ، ولعلنا لا نحتاج الى أن نعود فنقول انه مما ساعد على هذا الانتصار التام الذى أحرزته فرنسا فوق اليابسة ما كان من فرقه وخلاف بين صفوف الحلفاء • وكانت أول معاهدة سلام عقدتها فرنسا مع بروسيا فى بازل عـــام ١٧٩٥ ، تلك المعاهدة التى كان من أهم شروطها أن تحتل فرنســـا ضفة نهر الراين اليسرى حتى تنتهى الحرب مع جميع القوى المضادة لفرنسا ، وأعقبت هولندا بروسيا فى معاهدة سلام مع فرنسا ، أما أسبانيا فانسحبت من الميدان بعد قليل ، فلم يبق فى وجه فرنسا غير انجلترا والنمسا • وانه لأمر يستغرق سنوات وسنوات ، حتى تبلغ معهما الى سلام أو شىء من سلام •

ولم يكن يفوت الذين يستمسكون بيقينهم فى قرب انهيار الجمهورية عام ١٧٩٢ ثم عام ١٧٩٣ ، ثم شهدوا التكتيك الحربى الجديد والاستراتيجية الجريئة وانتصار جيوش الجمهورية اثر هذا كله ، لم يكن يفوتهم بعد ذلك أن ثمة قوة جديدة لها كيانها ولها خطرها قد دخلت ميدان التاريخ الأوربى •

بقية حياة الثورة :

مابقي من تاريخ حياة الثورة بعد هذا ، يكاد يطويه تألق شخصية كبرى ـ ألا وهي نابليون بونابرت ، مما ألمحت اليه في السطور السابقة • وقصته هي قصة الرجل الذى يسعى الى تقدم الصفوف جميعا وهو أهل لهذه الصدارة • وانما يعكس نابليون أحد قوانين التاريخ العامة : عهد من الفوضى والارهاب يبلغ ذروته ثم يبدا عهد استقرار وسلام وقوة على يد شخص بعينه • ويمدنا الماضى هنا بمثالين درج المؤرخون على عقد المقارنة أو ابراز وجه الشبه الكبير بين حياة كل منهما وحياة نابليون : الأول قيام الامبراطورية الرومانية على يد يوليوس قيصر؛ والثاني حكم أوليفر كروموبل فى انجلترا عقب ثورة « البيوريتان » (١) • ولا يصعب على التحليل التاريخي أن يبلغ علة مثل هذا التطور الذى تكاد تطرد قاعدته ، ففى المكان الأول ، نجد أن المجتمعات التى تمتحن بالبلاء يطحن أهلها ، لا تلبث أن تستبد بها الرغبة فى الاستقرار والنظام يردان لها السلام والرخاء • فاذا لم تسعفها الى غايتها الوسيلة الدستورية ، أو الوفاق بين الأطراف

---

(١) أو «المتطهرين» وهم جماعة من المتزمتين المتشددين فى امور الدين ، ليس للهو مكان فى حياتهم ، حتى أن المسارح الانجليزية أغلقت فى أيامهم • ومن أعظم رجالهم الشاعر المعروف جون ملتن ، صاحب «الفردوس المفقود» •

المتنازعة ، أعربت عن رغبتهـا فى بلوغ غايتها تلك عن طريق جندى قوى أمين ·

وفى فرنســا بالذات ، نجـد أن ارادة الشـعب والتصويت العام وان كان كلاهما موضع اجلال واحترام كبيرين ، لم يقررا شيئا أبدا منذ عام ١٧٩٣ ، حتى سلكت الأمة هذا الاتجاه · فالبلاد قد اعترق أهلها الكلال من فرص الجدل السياسى والنقاش الدستورى ، وخاصة وقد تحققت بعض الآمال وبقى بعضها الآخر لا سبيل اليه · لقد بهرت أنظار الفرنسيين انتصارات القادة العسكريين ، وهاهى الانتصــارات تتأكد حتى تكاد تكون صفة لازمة للجيش الفرنسى تحت قيادة نابليون · واذن فقد صحت قولة روسو قرب نهاية كتابه «العقد الاجتماعى» بضرورة سن قانون بكل رعاية الدولة الى خير مواطنيها ، حين تتعرض سلامة البلاد للخطر ، بينا نراه فى أوائل « عقده » يتحدث عن احساس خفى يســاوره بأن هذه الجزيرة الصغيرة « كورسيكا » ستبعث الدهشة فى نفوس الأوربيين يوما · وقد تحققت نبوءته ! ويقول بيرك لصديق له فرنسى فى رسالة بعث اليه بها فى بداية الثورة ، وتدل على فهم الموقف حــق الفهم : « فى ضعف نوع من السلطة واضطراب الأمور ترتيبا عليه ، يسود التمــرد ضباط الجيش ، وتتفشى الحزبية بينهم فترة من زمن ، حتى يأتى جنرال يفهم كيف يجمع بين أهواء الجيش المختلفة المتباينة فيوجه اليه الأنظار جميعا · هنالك تدين الجيوش بالطاعة لشخصه ، وهنالك

يكون قـــائد الجيش هو ســـيدك وسيد ملكك ، وسيد جمعيتك ، وسيد جمهوريتك كلها » ٠

حكومة الادارة :

ونعود الى حديث الثورة ثانية : رأينـا أن حكومة الادارة التى آلت اليها مقاليد الأمور فى فرنسا ، قد ردت معظم أعدائها على أعقابهم خاسرين ، فلم يبق فى الميدان غير بريطانيا والنمسا ٠ أما بريطانيا فقد قنعت بسلطانها البحرى بعد أن أيقنت باستحالة أى نصر برى ٠ بقيت النمسا اذا وحدها ، والى النمسا بدأت حكومة الادارة توجه ضربتها فى اتجـاهين : الأول جيش يقوده مورو وجوردان يمضى الى فينا ، العاصمة النمسوية ، عن طريق الغـابة السوداء المعروف ، والثانى ، جيش يسير الى ممتلكات التاج النمسوى ومناطق نفوذه فى ايطاليـا ، ويرأســه نابليون بونابرت الذى غطت عبقريته على زميليه فى الشمال ، ومن ثم فقد استأثرت حملته بالاهتمام الاكبر،وكان لهانتائج بعيدة ، ارتسم بعضها على أفق المستقبل ٠ من ذلك فرض نابليون الضرائب الباهظة على الولايات الايطالية وتهديده باستنفاد موارد البلاد الطبيعية وغير الطبيعية ان لم تؤد تلك الضرائب ، فقد كان ذلك التهديد أول خطوة رسمتها يد القدر على طريق الوحدة الايطالية ٠

ومهما يكن من شيء فقـد أجبرت قوة جيوش فرنسا النمسا على الموافقة علي الهدنة دون الصلح ، الذى مالبث

أن أكرهت عليه بعد قليل فى معاهدة « كامبيوفورميو » فى ١٧ أكتوبر عام ١٧٩٧ · ولعـــل أهم ملامح الحملة الايطالية اقامة جمهورية سيزالبين ، وهى جمهورية مثالية تقوم على أسس نظريات روسو فى « **العقد الاجتماعى** » ، وحسن معاملة الفاتيكان ، مما يدل على بعد نظر نابليون·

أما بريطانيا فقد أخفقت فى أن تقهـــر فرنسا فى الارض فسيطرت على البحر تمنع امتداد النفوذ الفرنسى فيما وراءه ، وكانت هذه ، أى فرنسا ، تفتش عن منفذ من مأزق بدا طريقه مسدودا · وفى النهاية اتجه التفكير فى دوائر حكومة الادارة الى مصر ، واليها ســار نابليون راضيا أو كارها ، « حتى تنضج الكمثرى » · كما كان يقول ، فيستولى على السلطة فى بلاده · اتسمت الحملة الفرنسية الى مصر بالنجاح الذى حالف خطواتها الاولى ، فلما انتصر الانجليز فى البحر ، دعا هذا الانتصار الكبير الى عزل نابليون عن فرنسا ؛ وأدرك هذا خطر الموقف، فأخذ يمكن لنفســـه فى الشرق ، فيفلح مرة ، ويخفق مرات ، حتى حملته آخر الأمر مركب تحت جنح الليل الى بلده ليواجه مشاكل داخلية تتراكم وتتكاثر ، فلا يفرغ منها حتى يكرس جهـوده للموقف الخارجى من جديد ، وقد أخذ يضطرب اضطرابا شـــديدا · فقد كانت هناك ايطاليا بمتاعبها ، وكانت هناك انجلترا بوعيدها ، وكانت هناك النمســا بحنقها ، وكان هناك غيرها ، ، وكلهـــا تتربص بالنجم البازغ فى سماء المجد الانسانى ·

ومع عودة نابليون الى بلده ، نعود الى شئون فرنسا الداخلية فى محاولة نحو رسم صورة الموقف الذى مهد الطريق أمام نابليون لتولى السلطة فى فرنسا .

بحر من المشاكل :

كانت حكومة الادارة غارقة فى نشاطها ، فالنقد انخفضت قيمته ، والكنيسة الجديدة لا يطرق بابها أحد تقريبا، وفشلت صور أخرى من الدين فى استهواء أفئدة الشعب الذى ما لبث أن لاحت رغبته فى دخول حظيرة الدين القديم مرة أخرى . وكانت الحكومة يؤرقها الى هذا كله مشكلة المهاجرين وغيرها من مشاكل جعلت تكبر وتضخم على نحو فوت عليها الاهتمام بمسائل هامة كبيرة منها تمسك النظريين الفرنسيين بنظريات الحكم المثالية وخاصة فيما يتعلق بفصل السلطات ، فقد كان أمل تحقيق هذه النظريات لا يبرح النفس الفرنسية . على أن شخصية الحكومة ذاتها ، كانت سببا من أسباب محنتها الرئيسية ، بل ان ما كانت عليه الحكومة من فساد وما ذاع عن دخائلها من فضائح ، كل أولئك عجل بنهايتها . وان لم تكن الفضائح بقدر ما كانت هزائم الجيش هى التى قضت عليها . ففى أكثر من مرة اضطرت الحكومة الى الاستعانة بالجيش فى عرض قوتها وجبروتها ونفوذها ، حتى تتمكن من اخراج أعضاء معينين من المجالس، وهم الذين نالوا مقاعدهم فى تلك المجالس بفضل موافقة الشعب فى انتخاباته .

فلما حلت الهزيمة بالجيش ، كما حدث فى ايطاليا مثلا ، وقعد عن تعضيد الحكومه لم يكن بد من سقوطها · نغير وجه الحكومة فحل محل اقدامى سييس وبارا ودو نو ومولين ، وعادت جماعة اليعاقبة ترفع راسها من جديد ، ولعل من بينها من كانت تحدثه نفسه بالاستيلاء على السلطة · وبدأت الامة تتلفت حولها تريد أن تعهد بأمرها الى من يهيىء لها سبيل الكرامة والطمأنينة ·

نابليون فى فرنسا :

عاد نابليون الى فرنسا عام ١٧٩٩ ، فقابلته الجماهير بعاصفة من الحماس الشديد ، فلم يكن يذكر له أحد اذ ذاك غير انتصاراته الباهرة فى ايطاليا ، أما محنته فى مصر ، فقد ردت الى أسباب لا يد له فيها ، وزاد تواضعه من حب الشعب له ، ولعله الآن بدأ يفكر فى تولى الحكم ·

فقد «نضجت الكمثرى» على حد تعبيره هو عن سبيل ممهد يبلغ به قمة الحكم · فالموقف الآن ، بعد عودته ، أسوأ كثيرا مما كان عليه عندما غادر وطنه منذ ثمانية أشهر ، فلا وجود للنظام الاجتماعى ، ولا استقرار فى حياة البلاد ، يريد الملاك ضمان ملكيتهم ، ويرغب القساوسة فى الاعتراف بهم والرجوع بهم الى حظيرة الفاتيكان · من هنا أدرك نابليون أن الثورة لابد أن تنتهى الى النهاية التى تكهن لها بها أولو النظر البعيد منذ

سنين ، أى الى ديكتاتورية عسكرية ، ولا سيما سييس ، عضو حكومة الادارة اذ ذاك ، والقانونى بعيد النظر ، وقد قال ذات مرة : « انى أبحث عن سيف » ، ولم يكن السيف بطبيعة الحال غير نابليون • فلما عاد هذا الى فرنسا ، أخذا يخططان معا فى أخريات أكتوبر لانقلاب ٩ ـ ١٠ نوفمبر ، ذلك الانقلاب الذى ساعد نابليون على بلوغ مأربه فيه وجود أخيه لوسيان على رأس مجلس النواب اذ ذاك •

رأى نابليون أنه لابد أن يطرأ تغيير على الحكومة : تقرب من بارا ، زميله القديم ، وخطب ود سييس النظرى السياسى وجعل يخطط معه على ما سبق القول ، وغازل تاليران اليعقوبى الماكر الداهية • كان يصغى اليهم جميعا، ولكن الرأى الأخير فى أى موضوع كان رأيه هو • فكر فى رئاسة الدولة ، ولكن تفكيره كان يمضى على الطريق الدستورى ، فلا يزهق روحا ولا يريق دما •

طريق نابليون الى الحكم :

أمل نابليون أن يستخدم المجلسان حقهما فى عقد جلساتهما خارج باريس ، فلم يكن جو باريس ولا دهماء باريس مما يتفق ومصلحة مخططه ، كذلك أمل أن يكل اليه المجلسان فى سان كلو ، حيث يرجو اجتماعهما ، رئاسة الفرق الباريسية ، وأن يصوت الاعضاء هناك فى ظل تلك الفرق ، بالموافقة على مراجعة الدستور وأن يعهد

اليه برئاسة هذا العمل وتوجيهه • لم يكن يساوره الشك فى أنه متى تم له هذا كله ، فقد آل اليه سلطان كبير • أما حكومة الادارة فقد كان يرى عزلها وان فضل اغراء أعضائها بالاستقالة •

وفى يوم ٩ نوفمبر اشتم أعضاء مجلس الشيوخ رائحة مؤامرة ملكية ، فدعوا الى نقل المجلسين الى سان كلو لاجراء اجتماعاتهما هناك ، وهو اجراء دستورى سليم ، وأعطوا لنابليون قيادة الفرق الباريسية التى كان يصبو اليها •

بيد أن نابليون كان يوجس خيفة من يوم ١٠ يونيو ، فقد أحس شبح خيبة الرجاء وهو يمضى مع سييس فى عربته الى مقر المجلسين ، حتى أنه حين وصلا الى مكان مشنقة باريس ، أشار لرفيقه بأصبعه اليها قائلا : « أى صاح ، اما أن تكون نهايتنا هنا أو فى قصر لوكسمبرج ! »

وصدق حس نابليون ، فقد تطورت الامور يومها على غير ما يشتهى ، فحين خطب فى مجلس الشيوخ يريد أن يوافق أعضاؤه على مراجعة الدستور ، أعرض هؤلاء عن طلبه وصرخ بعضهم فى وجهه : « لاكرومويل !! » وفى مجلس النواب لم يكن الرجل أسعد حظا ، فقد رفض الاعضاء طلبه كذلك • الا أن لوسيان ، أخا نابليون ، استطاع أن ينقذ الموقف ، فأعلن بصفته رئيسا للمجلس، رفع الجلسة ، وتشاور مع نابليون على عجل ، فتقرر استدعاء الجند • اقتحم جنود الفرق الباريسية قاعة المجلس

وطرد الأعضـــاء المعارضون منها • أما حكومة الادارة فقد اضطرت الى التخلى عن الحكم ، فقد استقال سييس وبارا ودوكو ، أما العضـــوان الآخران فقـد ألقى القبض عليهما ووضعا فى قصر لوكسمبرج •

وفى نفس الوقت جمع سييس وبونابرت بعض أعضاء مجلس النواب الموالين لهما ، وقرروا اقامة حكومة ادارة ، جديدة ، حكومة قنصلية أعضاؤها ســـييس وبونابرت ودوكو • (١) وكذلك قضى على حكومة الادارة السابقة وعلى دستور السنة الثالثة فى آن معا •

ورأى يوم ١١ نوفمبر عام ١٧٩٣ نابليون يقيم ثانية فى باريس وقد وافقت فرنسا على الوضع الجديد •

نابليون القنصل الأول :

وضع سييس دستورا للعهد الجديد ، دستورا يقيم التوازن بين السلطات ، ولكن نابليون كان يرى أن السلطة الفعلية يجب أن تكون بيـــده • وكان له ما أراد ، فقـد قضى على الدستور المذكور بجرة قلم وصار هو القنصـــل الاول ، صاحب الرأى النهائى ، يساعده قنصلان آخران يعملان مستشارين له ، هما كامبرسيه وليبرن ، (٢) ••

---

(١) وتؤكد مصادر تاريخية كثيرة ان مجلس الشيوخ اقر هذا الوضع الجديد .

(٢) لم يكن نابليون يؤمن بالشعب وكان يخافه ، وكان يرى أن الدستور الحق يتمثل فى « قدرة خيال الحاكم على اللعب على مشـــاعر الشعب وعواطفه دواما» .

وتم تعيين مجلس دولة يشرع قوانين الامة ، وملئت مناصب الدولة وفق هوى أصحاب النظام الجديد ، ورضى الشعب الفرنسى أن تئول مقاليد الحكم فى البلاد الى نابليون ، فهو جندى قوى قادر على السير ببلاده فى طريق الرخاء تظلله الطمأنينة ٠

واذا فرغنا من سيرة الثـورة التـاريخية فى مختلف وجوهها ، وهى تمضى خطوة خطوة على طريقها ، تحاول بين الحين والحين أن تحقق بعض الفكر الفلسفى الذى دفع عجلتها على الطريق أول الامر، فتصيب حينا، وتخطىء آخر، وتتعثر أحيانا ، شأنها فى ذلك شأن كل ثورة أخرى ٠٠ فقـد بقى أن يتناول الكلام هذا الفكر ومدى أثره فى المحيط الانسانى ، مما يشكل موضوع حديثنا فى الفصل التالى والأخير ٠

الثورة الفرنسية ... فى الميزان

« كان خير زمن وكان شر زمن٠٠ حقبة حفلت بالرجاء وباليأس ٠٠٠٠ »

(شارلز ديكنز فى قصة المدينتين) ٠

تميز العصر ، ابان قيام الثورة الفرنسية ، بملامح تحمل طابع الثورة ؛ وكان أبرز هذه الملامح ما تمثل فى التناقض الكبير بين أعمال الساسة ورجال الدولة من ناحية ، والفكر القوى الذى يتسم به العصر من ناحية أخرى ؛ ولكى نفهم حقيقة الموقف فى هذا الشأن ، لا بد أن نرسم صورة هذا الفكر وطابعه العام ٠

طابع الحركة العقلية :

كانت فرنسا تحتل مركز الصدارة بين أمم العالم فى مضمار الفكر ؛ وكانت الحركة العقلية اذا ذكرت ، انصرف الذهن الى الحركة الفكرية فى فرنسا ٠ وما كان هيوم وجيبون ولوك فى انجلترا ؛ ولسنج وكنط وجوته

وشيللر فى ألمانيا ، الا حلقات فى سلسلة الحركة الفكرية التى يؤلف حلقاتها الاخرى فولتير ومونتسكيو مع ديدرو وروسو فى فرنسا •

ترى هل يمكن تمييز الخصائص لمثل هذه الحركة واسعة الانتشار؟ بادىء ذى بدء ، تبدو الحركة حركة عالمية الطـابع والنظرة ؛ وهى من هنا تنـاقض فى صراحة طابع سياسة العصر السـائد • فلم يكن الادب فى أمة من الامم التى ذكرت يضرب على وتر وطنى أو يبعث نغمة قومية • لقد كانت انجلترا وفرنسا طرفى معركة اتصل أوارهـا طيلة القرن الثامن عشر تقريبا ؛ ومع ذلك لم يكن الاتصال الفكرى بين الأمتين أكبر شأنا ولا أعظم خطرا فى أى وقت مضى منـه فى هـــذا القرن بالذات • حقيقة كان فردريك الأكبر يحث العقلية الالمـانية ويحضها على العمل الوطنى ويبث فى نفوس أهلها روح القومية ، حتى أننا نسمع فى أدب تلك الأيام ، وخاصة فى أدب شيللر أصداء لهـــذا البث الامبراطورى ؛ ولكن مع هذا كله ، تبقى الحقيقـة قائمة أن الأدب الألمـــانى فى تلك الفترة التى تغنى بعض أهلها بالوطن ، كان أدبا تشيع فيه روح الانسانية ، وروح العالمية ، شـأنه فى ذلك شـأن غيره من الآداب سالفـة الذكر •

والسمة الأخرى لهذا الأدب ، وأعنى أدب هذا العصر بالذات ، هى الانسانية ، ففى غضون القرون التى خلت ،

منذ الميلاد وما قبله ، لم تغب هذه السمة عن وجه الأدب أبدا ؛ وهي وان شحب لونها شيئا في دهر الانسانية ذاك الطويل ، فانها لم تكن أنضر منها في القرن الثامن عشر ٠

وثالثا وأخيرا ، نجد أن فكر العصر كان فكرا نقديا، يكاد يعادى على الدوام دعاوى الكنيسة والأديان ٠ وكان بعض كتاب هذه الحقبة لهم حظ من دين ، ولكن ما من واحد منهم كان نصيرا لعقيدة دينية الى حد أن يحسب له حساب ٠

أئمة الفكر الأوربى :

ومن بين هؤلاء الكتاب جميعا ، يصح لنا أن نختار ثلاثة يتصدرون أرباب القلم يومئذ ، وهؤلاء هم فولتير ، ومونتسكيو ، وروسو ٠

فولتير

كان فولتير أكبر الثلاثة شهرة وأكثرهم قراء ، ولكن فكره لم يكن عميقا ؛ فنراه لا يزود الفكر الأوربى بشيء ذى بال فى أى جانب منه ؛ ولكنه من ناحية أخرى ، كان أقوى رب قلم فى أوربا ، قادرا على تعريف الناس بالأفكار ونشرها بينهم ؛ وكان نفوذه فى هذا المضمار يصل الى أوسع مدى ٠ كانت ضرباته كلها لاذعة ، يوجهها الى أفكار الكنيسة وما تعمله ؛ ولم يكن من حيث الميول السياسية حرا أو ديموقراطيا ؛ وانما كان يرى فى

الاستبداد الحـــانى الكريم الذى يمارسه فردريك الاكبر فى بروسـيا صورة الحكم المثالى الذى ينبغى قيامه فى كل قطر من أقطار الدنيا • ولعل هذا الجانب منه هو الذى راق نابليون بونابرت فكان ربيبه • وكان ، أى فولتير ، فوق كل شيء ، يهـــاجم فيما يكتب وبما يعمل عدم التسامح السائد فى عصره • فقد كانت أيام محاكم التفتيش قـــد ولت ، ولـكن البروتستانتيين الفرنسيين مابرحوا يعانون من الاضــطهاد الذى كان يرحل بهم عن الدنيا أحيانا كثيرة • وكان فى احتجاجه هذا ، وفى صور أخرى من العـداء لمـا حوله من نظم وتقاليد تقعد بالمجتمع الانسانى عنحياة الرضا والرخاء ، كان يمثل صوتالضمير الانســـانى • فكانت قدرته العقلية الفـــائقة ، وذكاؤه النادر ، وهجاؤه اللاذع ، وعبارته الرقراقة ، ومناشدته الانسانية فى كل ما يكتب ويقول ـ كانت كلها تشيع فى جنبات القــرن الشـامن عشر ؛ وتتغلغل فى كيان الثورة الفرنسية •

مونتسكيو :

أما مونتسكيو فكان الرجل الذى يدرس مســائل الدستور ومشـــاكله ويتعمقها ، وكان بطبيعة مزاجه من المحافظين • كان كتابه العظيم « روح القوانين » (١٧٤٨) وفيه مناقشة عامة لأشكال الحكم ، خزانة أفكار أولئــك الذين مضوا يسعون الى اعادة البناء السياسى فى فرنسا

فى السنين التى تلت • بل ان دستور الولايات المتحدة الأمريكية قد تأثر به الى حد كبير ؛ الا أن الكتاب ، على نحو ما اعترف مونتسكيو نفسه فيما بعد ، كان يحمل آثار فضل الدستور الانجليزى الذى كان يعجب به مونتسكيو وغيره من كبار رجالات فرنسا فى ذلك الزمن • كان مونتسكيو يؤثر حكومة محدودة ، ثم نظاما من المراجعة والموازنة ؛ وكان ما يروقه أكثر من غيره فى النظام الانجليزى مادعاه ب « فصل السلطات » • فكل هيئة من الهيئات التنفيذية والتشريعية والقضائية وحدة قائمة بذاتها ، منفصلة عن أختيها الأخريين ، وان كان قد أخطأ الحقيقة هنا ، حين قال بالفصل التام بين الهيئتين التنفيذية والتشريعية فى انجلترا •

روسو :

بقى بعد هذا روسو ؛ وكان أكثر كتاب عصره حظا من الانصار والاعداء ؛ فقد كانت كتاباته تشد البعض اليه ، وتثير البعض الآخر ضده ؛ وهو الى يومنا هذا موضع نقاش كثير يتناول أفكاره بين حين وآخر • ولا يكاد مزاج هذا الكاتب الفكرى أو العاطفى تجمعه آصرة بعصره، فهو وان بدا احدى القوى البعيدة الأثر فى تيار الفكر الرئيسى فى زمانه ؛ فانما يبدو لنا أكثر من غيره ، فى غير عصره وأوانه ، فهو « يلقى بنفسه عبر التيار ويحاول السباحة ضده » • أما أسلوبه فأسلوب يحرك النفس وان لم يكن

له وضـــوح أسلوب فولتير • وعاطفة روسو الدينية عاطفة قوية جارفة ، ولكنه مع ذلك لم يكن فى حياته مسيحيا • كان يحس آلام عصره التى تبعثهـا الى الوجـــود مساوىء نظمه ، ولكنه لم يقترح علاجا واحدا أخذ به غيره •

لخص روسو فى كتابه المعروف « العقـد الاجتماعى » الذى رأى النور عام ١٧٦٢ آراءه فى الحكم ؛ ولكنه ساق معناه فى عبارة عميت على الأفهام كثيرا فهى الى يومنا هذا مثار جدل عنيف ونقاش كثير • يبدأ صاحبنا كلامه فى « العقد » بالاحتجاج ، احتجاج الرجـل الجريح الكرامة ، على الاستبداد ، فيقول : «ولد الانسان حرا ؛ ومع ذلك فهو مقيد فى الأغلال من كل جانب » • ان الدولة عنده مدينة بأصلها الى الشعب ، فهى ملك له لامراء • ومن ثم فالحق حق الشـعب ، بالرغم من كل المعاهدات أو الدساتير التى تغـير وجهه أو تلغى صوره • ويبدو من حديث روسو فى « عقده » أنه لا يظن الديمـــوقراطية نظاما ممكنا ، اللهم الا فى الدول الصغيرة ، ويقول فى وضوح ان الحاجة قد تدعو الى ديكتاتور ؛ ويختتم حديثه فيه بضرورة وجود دين للدولة ، فلا بد أن يفرض على الأمة بأسرها شكل من الدين بسيط لا يحير العقل ، مدنى لا يستعجم على الفهم ؛ حتى ولو اقتضى الأمر أن يكون جزاء رفضـه اعتناقه الاعدام • وقد تخطت آثار فكر الرجل حدود بلاده وعصره ؛ وهى التى تجلت على نحو ما شاهدنا فى حياة الثورة الفرنسية•

مفكرون آخرون :

لم يسترع اهتمام الخلف من كتـــاب السلف فى فرنسا غير هؤلاء الثلاثة الذين سقناالى القارىء طرفا من حديث كل منهم : فولتير ، ومونتســـكيو ، وروسو ؛ بيد أنه كانت تقوم الى جانب هؤلاء طائفة من مفكرين آخرين بعد أثرهم كذلك فى سير الثورة الفرنســية ، ويعرفون باسم الـكتاب الاقتصاديين ، وقد تأثروا فيما وضعوا من مؤلفات بالكاتب الاقتصـــادى البريطـانى المعروف آدم سميث صاحب كتاب « ثروة الأمم » • وأشـــهرهم هو كسناى • ولم تكن هذه الطائفة تعنى بالأفكار الفلسفية التى تسود العصر ؛ كمـا أنها لم تكن تلقى تقـــديرا من أصـــحاب المذهب الفلســفى الثـــورى ، وخاصة فولتير ومونتسكيو •

أثر المفكرين الاقتصاديين فى الثورة :

واذا نحن أردنا أن نشير الى بعد خطر هذه الطائفة المفكرة فى حياة الثورة الفرنسية ؛ وهى جماعة الفيزيو ـ قراطيين وعلى رأسهم كيسناى ومـيرابو ؛ تعين علينا قبل كل شىء معرفة مبدأ الجمـاعة وخصائص الفكر الاقتصادى الذى يدعون اليه •

يتمثل مبدأ الفيزيوقراطيين فى جملة واحدة : « ان ثروة الأمة تتناسب تناسبا مباشرا مع خصب أرضها » • وهم يقـــولون « ان الدولة انما تقوم لتعيد نظاما طبيعيا

الى سيرته الأولى وتصونه ، لا أن نتدخل فى عمل ذلك النظام » • وهم يدعون الى حرية التجارة بين الأمم مما أثبت صحته الاقتصادى البريطانى آدم سميث • ويرون فى النهضة بالزراعة طريق الرخاء • ومن هنا رأيناهم يشجعون اصلاح الأراضى فى فرنسا من جانب الحكومة وكبار الملاك • بيد أنهم كغيرهم كانوا يعلمون أو هم كانوا يرون أن الاصلاح المنتظم لا يضعه موضع التنفيذ غير ملوك طغاة أو أقوياء • ومن أبرز ما يمثل نظرتهم الى اقتصاد الأمة موقفهم من الضريبة المباشرة وغير المباشرة ؛ فقد كانوا يرون أن الضريبة المباشرة هى التى تفرض على الارض مباشرة أو دخل الأرض مما يشكل فى اعتبارهم مصدر الثروة الوحيد ؛ أما الضريبة غير المباشرة فهى عندهم تلك التى تفرض على صناعة البضائع أو نقلها أو بيعها •

وقد أثر الفيزيوقراطيون فى الرأى العام حتى أنهم اكتسبوا سمعة سياسية خاصة ، ولاغرابة فى هذا فقدكانوا يعنون أوهم يمثلون مذهب «تدبير بيت الدولة» الذى كان يفرض سلطانه كذلك فى ألمانيا وقتذاك • ومن مبادئهم التى وجهت اقتصاد العصر : « الثروة تأتى جميعا من العمل فى الارض » ، «العمال هم أكثر الطبقات انتاجية» ، «سلطان الحكومة ينبغى أن يقل الى أدنى حد» ، «ان التجارة الحرة واقرار نظام تربوى عام هما أهم الاصلاحات التى تتطلبها الدولة الآن » • وأخيرا « الضرائب كلها ينبغى أن تخفض الى ضريبة أرض واحدة » •

وكانت هذه المبادىء فى نظر ميرابو « تكفى لتقويم ما اعوج من الأمر فى البلاد ، ولكى يعود عهد سليمان» . وكان ترجو يدين بالولاء لهذه المدرسة ، فكان يحاول تنفيذ تعاليم كسناى . ولا يعلو أثر هذه الجماعة فى الثورة غير أثر فريق روسو .

أهداف الثورة :

فلما وقعت الواقعة ، بلورت الثورة أهدافها في كلمات ثلاث هى : « الحرية والمساواة والاخاء » . وثلاثتها بصفة عامة والأولى والثانية بصفة خاصة مما يشق على العقل تحديدها ، فكان يتسع نطاق مفهومها مع مضى الثورة فى طريقها . ففى بادىء الأمر مثلا ، كانت «الحرية» تعنى أمن الفرد فى وجه سلطان الدولة ، وكان معنى « المساواة » المساواة بين الناس أمام القانون والغاء الامتيازات . أما « الأخوة » التى سعت الثورة اليها فكانت تعنى أن يتآخى أفراد الأمة لا يفرق بينهم ظل من المرتبة الاجتماعية فى أية صورة .

لم يكن يرى واحد من مفكرى العصر فى « الأخوة » لفظا يمكن أن ينصرف معناه الى العلاقات بين الأمم ، وان أدرك اثنان من ذوى العقول هذه الحقيقة الكبرى ، وهما كنط وروسو ؛ فكتب كنط رسالة بعنوان «السلام الدائم» يدعو فيها الى أخوة أوربية تستهدف تأمين ذلك السلام ؛

ونؤمن الناس ضد شرور الحرب فى أسلوب ينطق بنبل القصد ، فنراه يطلب أن يؤلف ملوك أوربا حلفا أخويا قويا ، يلزم كلا منهم بالوقوف الى جانب الآخر فى وجه الغارة على حقوقه وأراضيه ، مما فيه نفع البشرية فى النهاية • وكتب كنط يطلب الشىء ذاته فى عام ١٧٩٥ ؛ وان تناول الموضوع بشىء من التعديل الطفيف •

ولقد كان على روسو وكنط أن ينتظرا قرابة قرن من الزمان أو أكثر قليلا ، حتى تقوم عصبة الأمم ، تجسد محاولة الانسانية الأولى نحو تحقيق هذا الهدف السامى•

هذا شريط قصير المدى يرسم صورة الفكر الثورى أو فكر زمن الثورة فى فرنسا ؛ ولعل مما لا ينافى الحقيقة القول بأن هذا الفكر لم تنحسر موجته بعد مد فى بلده ؛ وانما تخطى حدوده ، وأخذ ينشر ظله فوق ربوع المعمورة•

فالعالم اذ ذاك فى نظر كثرة من الناس يقترب من دنيا سعادة حقة ترسم الطريق اليها ثورة فرنسا «من رأس الدولة الى أدنى تشريع» • فهاهى الولايات المتحدة الامريكية قد أنهت القول بملك ، وفرنسا من ورائها فى طريقها الى الشىء ذاته ؛ وكل شىء يومىء الى السعادة المرتقبة « الى مدينة السماء » التى تحدث عنها القس الانجليزى المعروف « جون بانيان » فى القرن السابع عشر ؛ ثم كان الطور الذى لاذ فيه الكثيرون بكل مكان ، هربا من اضطهاد أو ارهاب أو اشمئزاز من زلات الثورة وسقطاتها وازدراء لها

اذ لم تحقق أهدافها · ويحضرنا هنا قول وليام هازلت ، الناقد الادبى الانجليزى الكبير: «كانت الثورة الفرنسية هى المباراة الوحيدة بين الفلسفة والتجربة · فنحن حين نستيقظ من غشية النظرية السعيدة ، تطرق آذاننا كلمات الحق والعدل والفضيلة والحرية ينطق بها قائلها فتلقى الازدراء البالغ أو عدم الاكتراث البادى على نحو ما يرتسم على محيا الرجل الذى تركته محبوبته ، من أثر أغانى الحب الجميلة » ·

ولئن قعدت الثورة الفرنسية عن تحقيق بعض أهدافها ، فان من حقها علينا القول بأنه ما من ثورة فى الدنيا حققت أهدافها جميعا ؛ فهاهى ثورة انجلترا مثلا عام ١٦٨٨ ؛ بالرغم مما حققته من أهداف بعيدة لم تفلح فى أن تذهب بعدم التسامح الدينى كلية ؛ بل بقى كذلك من آثارها « التصويت البرلمانى اللامتساوى » ·

أثر الثورة الفرنسية :

وينتقل بنا هذا المثال من التاريخ الانجليزى على أن الثورة الفرنسية لم تكن نسيج وحدها حين لم تحقق أهدافها كلها ، ينتقل بنا الى أثر هذه الثورة فى اثنين من أبناء الامة الانجليزية فى تلك الايام ، وماينطوى عليه هذا الأثر من خلق أعداء وأنصار لها ـ نتيجة طبيعية مترتبة ـ هما ادموند بيرك صاحب كتاب « نظرات فى الثورة

فى فرنسا (١٧٩٠) ، وتوماس بين واضع رسالة « حقوق الانسان » (جزءان : ١٧٩١ ، ١٧٩٢) .

بدأ الاحساس الحقيقى بالثورة الفرنسية فى آنجلترا يوم ألقى القس برايس موعظته التى عطف فيها على الثورة الفرنسية وأغراضها فى غير اسراف غير أنها أثارت ثائرة عضو البرلمان الانجليزى «بيرك» الذى كتب مؤلفه «النظرات» سالفة الذكر ، يرد به على صاحب الموعظة ، فأسرع يرد عليه « بين » برسالته «حقوق الانسان» وكان بين غارقا فى لجة الفكر السياسى الانجليزى والفرنسى المعاصر . ولا شىء بعد هذا فى مناخ العصر الثقافى حيال الثـــورة الفرنسية يستأهل الذكر ، اللهم الا كتاب جودون الموسوم « العدالة السياسية » وفيه يقف صاحبه من الثورة فى فرنسا موقفا معتدلا الى حد بعيد ، بيد أن الزمن نسج حول أعمال هؤلاء جميعا خيوط النسيان فيما عدا بيرك . فلم ؟ لأن « أشباح العظام » فيما يقول البعض «تسير فى الأرض بعد موتهم» . فالعاطفة أكثر من الفكر العقلى تبعث بالعظيم من قبره بعد موته ، فيسعى بين الأحياء من جديد ، فنحن نجد فى بيرك «التنوع ونجد فيه مخاطبة الانسانية» . (١)

بيرك ونظرته الى الثورة :

ان بيرك وان « كره التعميم » فيما يقول به ، لم يرق

---

(١) «شلى وجودوين ودائرتهما» لبريلزفورد . انظر مراجــع الكتاب .

له الفلاسفة» • وكانت له فلسفته التي لن يلبث القارىء أن يستشف قوامها من خلال حديثنا عنه • لقد كان الرجل « عقلية بركانية (١) تقذف حممها مبادىء ساعة انفجارها بكل ما لها من قـوة قاضية » • ولا يسـتطيع التحليل المنطقي بحال أن يبلغ كنه بيرك ، فكل مبدأ يفوه به خطيب أو يدونه مؤلف ، انما تضفى عليه المناسبة لونها، والعاطفة ظلها ، وحال السامع أو القارىء مزاجه ، فبيرك حين كان يتحدث عن الثورة ، كان يتحدث عنها في ضوء سياسـة العنف والقسوة التي تسود الثورة الفرنسية ـ ولا سيما طور الارهاب ، فثورته على الثورة هنا انما ترتد الى منطق العـاطفة لا منـطق العقـل ، حتى قالت عنه القصاصة الانجليزية التي كانت معاصرة له « فانى بيرنى » : حينما كان يتحدث عن الثورة ، كان يتخذ وجهه في الحال هيئـة الرجل الذى يدافع عن نفسه ضد القتلة» • وكانت هذه حقا سمة أقواله جميعا ، فرسالته هي نشر الفزع الذى يحسه وليس في وسع أحد أن يجـد سببا آخر يعلل به تدفق غضبه على أعدائه في الرأى وقد تنبأ بيرك بالارهاب قبل أن يستحيل حقيقة واقعة ، وباثارة أوربا كلها في حلف ضد فرنسا • ومن يدرى فلعله فعل بموقفه هذا الكثير تجاه تحقيق نبوءاته تلك !

على أننا لكى نعدل من موقفنا من بيرك ، ينبغى لنا أن ننظر الى موقفه هذا من كل جانب • فماذا نجد ؟ نجد أن

(١) أنظر المصدر سابق الذكر •

خوفه وفزعه انما كانا خوف وفزع من لا يهتم بشيء يتعلق بشخصه هو ، ومن هنا يكون أجدر بنا وأعدل من جانبنا أن ندعو هذا الخوف باسم « كراهية القسوة » كان يكره فلاسفة الثورة . لم ؟ لأنه فى نهاية طريق تفكيرهم تقسوم المقصلة . ولا أدل على صـــحة هذا من موقفه حيال دوق هاستنجز وبشاعاته فى الهند ولـــكنه لم يكن بوسعه أن يرى شـــيئا من بؤس انفلاحين الكئيب الذى دفع أصحابه فى الحقيقة الى الثورة ، ونسى « كراسات الظلامات »التى حملها معهم مندوبو الشعب الى الجمعية الوطنية ، الا أننا فى خاتمة المطاف نعود فنقول ان موقفه لم يكن ناجمـــا الا من كراهة الشر الذى كان يقاوم وجوده فى حياة الثورة مقاومته له فى استعمار الهند أو استعباد الزنوج ومايجرى هذا المجرى .

على أنه فى أساس النظرية السياسية ، نراه ، أى بيرك ، يقف موقف من يوافق أصحاب الثورة ، فهـــــو يحتفظ بقـــول القرن الثامن عشر التقليدى من أن الدولة تقوم على أساس من « عقد اجتماعى » . وتلك نقطةالبداية عند روسو كما نعلم ، وترتد فيما نعرف الى لوك فى نظريته عن «الحرية المدنية» مما دعا الى القول بأن الثورة الفرنسية « فكرة مستوردة ! » بل اننا لنجد فى بيرك كثيرا مما يدل على قبوله بما سماه « الحقوق الطبيعية أو البدائيةللانسان» وهو وان غض الطرف عنها حينا ، فانما نظرته نظرة من سبيله سعادة المجتمع . ويميل النقد الحديث « الى تأسيس عظمة بيرك على التنبؤ بالنظرة التاريخية السياسية » وقد

خلدت كتب المختارات تلك المقطوعات الرائعة فى كتب بيرك لتى تمجد استمرار حياة البشر ، وتربط الحاضر الى الماضى بسلسلة من حلقات تراث مقدس ، والتى تبعث رؤى تسطع بروعة النظام الاجتماعى والقول بالتاريخ ! وليس كذلك « بين » ، نقيضه الاول ، الذى لم يكن يعرف التاريخ وكان حظه من الاهتمام به أقل من حظه من معرفته له • على أن التاريخ بصفة عامة لم يكن مما يقبل به الثوريون الذين يرون فيه «فلاسفة التجديد يواجهون سفاسطة السلطة»(١) ثم هم يأملون دائما فى الخير على يد القلة المتنورة التى تستطيع أن ترفع كتل الشعب الى مستواها تدريجا •وهنا نقول ان بيرك كان يرى أن الفرد فى ذاته « مخلوق أحمق غبى » فى حين أن الجنس ، أى البشر ، « حكيم عاقل »وأن الارستقراطية الكريمة عليها أن تحتفظ بالشعب الخامل لا يضطرب ميزانه •

ترى ماذا بقى لنا فى بيرك نحتفظ به الآن ؟! ان ما تبقى لنا من بيرك انما هو براعة بيانه ، تلك العبارات العامة الرنانة والمبادىء التى يطبقها كل وفق هواه ، وان كان لها فى أيام بيرك معنى الدفاع عن حق التصويت الذى يتطلب الاصلاح ، وكان احترامه لما قضت به العناية الالهية التى جعلت من المجتمع الانسانى ما كان ، يقف عقبة كأداء فى طريق النظرة الشاملة ، فكان أن رأى فى الثورة

(١) شيلى وجودوين ودائرتهما •

الفرنسية ثورة على أوضاع الله فى الارض ، مما يلمع الى ضيق أفقه الفكرى .

غير أن هذا يكاد يضع فى أيدينا مفتاح فهم «الديالوج بين بيرك والثوريين » . ذلك أن كل فريق يعمل بوحى عاطفة تعمى على الفريق الآخر . كان بيرك يبح صوته خوف الاسراف فى فرنسا ، وكان خصومه يؤمنون بأن التقدم ممكن انسانى ، فليس للمرء أن يفكر فى يومه وحده وانما على غرار ما يفعل أهل الثورة ، لا بد أن يفكر فى غده ، لا ، بل وفيما بعد غده ، ـ ولعل هذه العقيدة كانت أولى عناصر التخفيف من وقع الارهاب على نفوس الفرنسيين ويحضرنا هنا ذكر رسالة كوندرسيه بعنوان : « صورة تخطيطية لتقدم العقل الانسانى فى التاريخ » . وهى الرسالة التى جعل منها شعب فرنسا وثيقة قومية . يقول المفكر الفرنسى ان التقدم قد يبطىء أو يحث خطاه ،ولكنه فى الحالين حقيقة أكيدة . وكان التقدم يعني فى ضوء الظروف الجارية أول ما يعنى زوال عدم المساواة بين الناس وقال كوندورسيه ان افريقيا ستدخل طور حضارة يعتمد على الزراعة المستقرة ، وسيتخذ الشرق تشريعات حرة ، ومن ثم فلن يلبث أن تشرق شمس الحرية على الناس فى كل مكان . والشرق هذه الايام يحمل ملامح صدق ماكتبه كوندورسيه منذ أكثر من قرن من الزمان، على نحو ماحملتها الأيام القريبة منه اذ أعلنت الثورة المساواة بين الناس فانطوى هذا الاعلان على القضاء على الاحتكار ، وعلى تقارب

الثورات ونظام التأمين والتعليم العام المؤدى الى تقليـــل الفروق العقلية بين الافراد وتحطيم فروق الطبقـــات ؛ وأوجت الثورة على السياسة فى العهـد الجـديد أن تخلق عالما لا يسمح فيه للساعى الى خيره الشخصى أن يجور على خير الآخرين. وهى الفكرة التى رددها الشاعر الانجليزى وردزورث ـ فهى عنده فكرة القدرة على بلوغ حال أفضل عن طريق التخـلى عن ألوان التعصب المختلفـة وأسـباب الطغيان المتنوعة .

وبعد ، فصفوة القول هنا ، أن الثورة الفرنسية أحدثت أثرها فى بيرك فى صورة اشمئزاز من بشاعاتها ، فعزف عن كل ما تدعو اليه ، ثم هب يشن غارته عليـه لحظة أدرك خطر آثاره البعيدة . ومن العدل أن نقر هنا أن بيرك الذى تأثر بالثورة على هذا النحو ، كادت تذهب صرخته صيحة فى واد وسط دوى الحماس الشـــديد الذى لقيته الثورة فى أيامها الاولى بين الانجليز ، وخاصة الشـــباب منهـم ، فكان وردزورث وكوليردج وغـــيرهما من النفوس الرانية الى غد قريب ترجيـــه ، لا يرون فى الثـورة الفرنسـية غير نداء الى العمـل ، ولعـل رسالة جودون الموسومة « العدالة السياسية » كانت انجيل هذا الشـــباب المتطلع ، والذى لم تهبط حماسته للثورة ولا تسربلت باليأس نظرته الى فرنسا الا يوم اشتد سـاعد الارهاب فيها ، فذبلت نبتة الامل وذوت فى نفوس أولئك الذين كان يرسم خيالهم فى ضـــوء الانتفاضة الفرنسية

الكبرى صورة مجتمع مثالى يفيض بالخير وينعم بالرخاء والطمأنينة ٠

وهذه النظرة الأخيرة ، تشكل موقف « بين » الى حد بعيد ، وبين على ماسبق القول ، هو الطرف الآخر من طرفى النظرة الى الثورة الفرنسية ٠

موقف بين من الثورة :

لعل البعض يذكر قولة فرانكلين « حيث الحرية يكون وطنى » وهى عبارة تحدو بسامعها الى الاعتقاد بأن صاحبها أحد أوائل الرواقيين ، وهى فيما نرى خير عبارة تفصح عن انسانية القرن الثامن عشر ٠ ويقول بين ردا على فرانكلين فى هذا الشأن : « حيث لا حرية يكون وطنى » ٠ وهى عبارة لا نجد خيرا منها من الناحية الأخرى ، اذا نحن أردنا قولة تعبر عن حقيقة هذا المجاهد فى سبيل الحق ، وهى الشعار الذى حمله لافاييت الى أمريكا ، كما حمله بين من بعد ، بل انه كان كذلك شعار بيرون يوم شد رحاله الى اليونان يناصر أهلها ضد الأتراك من أجل الاستقلال ، ومن بعده شعار كل رجل يضع البذل فوق المتعة فى اعتباره ، ويعلو بالاخاء فوق الوطن ٠

لم يكن بين ابن قرن بعينه ، وهو لا يحده تعريف، فكتاباته تنتمى الى عصر التنوير ، أما أعماله ففى « محيط

رومانتيكية » ، كان فى أسلوبه السهل الواضح يعبر عن فكر فاهم يجزع من الغموض ويخشى الظلال التى تمشى فى الأضواء ، وكان فى ازدرائه لتقاليد الكنيسة وسياسة الطبقة الارستقراطية متأثرا بفكر فولتير وروسو . كان لا يعرف غير لغته ، فاذا كتب ، كان ما يكتب أشبه بملحمة . رحل الى أمريكا واشترك فى تحريرها بالسيف والقلم من نير الاستعمار البريطانى . ولعل أروع سطور جهاده كتابه الموسوم « الأزمة الأمريكية » . الذى كتبه فى غبش الليل على ضوء النار الخافت فى معسكرات الوطنيين ساعة كان اليأس أدنى الى القلوب من خير يعم البلاد . ففعل كتابه فى نفوس الأمريكيين فعل السحر ، فكان أقرب من أى شىء آخر الى أغنية روجيه دى ليل الخالدة فى أثرها فى جيوش الثورة الفرنسية ، واليه يرجع الفضل حين اضطربت مالية الحرب الأمريكية اضطرابا شديدا ابان حرب الاستقلال ، فى الاسراع بالعمل على استقرارها عن طريق تخصيص مرتبه كله خدمة للقضية ، فحذا حذوه الجميع ، ثم هو استطاع بعد ذلك الحصول على عون من البلاط الفرنسى . لم يخلد الرجل يوما الى الراحة فى ظل الضيعة التى أوقفتها عليه ولاية نيويورك اعترافا بفضله ، فآب الى انجلترا ليهجرها بعد حين . وقد يذكر الكثيرون أن لافاييت أهداه ، اعترافا منه بمكانته ، مفتاح قلعة الباستيل ، رمز الطغيان الفرنسى ، فبين ، فى نظر

الناس ، شيء من همزة وصل بين ثلاث ثورات ، الثورة التى نجحت فى العالم الجديد ، والثورة التى كانت تغير الآن وجه فرنسا ، والثورة التى لن تلبث أن تشتعل نارها فى انجلترا ٠

ظهرت « نظرات » بيرك « فى الثورة فى فرنسا » ٠ فكانت تحديا لبين الذى سدد رصاصته اليها فى « حقوق الانسان » ٠ وما الصفحات اللامعة التى يدافع فيها الرجل عن الثورة الفرنسية ضد هجوم بيرك ، وقد أخطأ فهمها ، الا أمثلة على صدق حجته الرئيسية ٠ ان بين هنا يفصل القول فى حق الثورة ويطيح بنسيج العنكبوت من سلطان الماضي وشرعته ، فهو لا يرضى أن تحد الأجيال المقبلة فى حدود ما انتهت اليه ثورة ١٦٨٨ ، فكل عصر وجيل له حق حرية العمل من أجل نفسه ، فليس للانسان ملك فى أخيه الانسان ، وما دعوى جيل مضى فى حق حكم أهل الارض من وراء القبور الا ضرب من الاستبداد بلغ من الوقاحة مداها ـ لقد قال بيرك بحق الميت فى حكم الحى ، ولكن ما تختـــار أمة بأسرها أن تعمله لابد أن يكون لهــا الحق فى أن تأتيه ، فالذين ارتضوا عام ١٦٨٨ أن ينزلوا عن حقوقهم خضوعا للملك وليم وورثته ، كان من حقهم أن يختاروا ، وهم بعد أحياء ، حتى أن يكونوا عبيدا ٠ ولكن ذلك لا ينقص من حق أبنائهم مقدار ذرة فى أن يكونوا أحرارا ، فليس « للخطأ سلالة شرعية » ٠

وكان رد بين العظيم هذا ، خير دعاية فى انجلترا لممارسة حقوق الانسان على الطريقة الفرنسية .

ومهما يكن من شيء فان بين كان يحس فى قرارة نفسه أنه صنع بالفعل جمهورية بكتاب ، أما الكتاب فهو « الأزمة الأمريكيـة » وأما الجمهورية فأمـريـكا ، فـلم لا يصنع كتاب آخر جمهورية أخرى ؟ لقد كان يثق ثقة عمياء بقوة الحجة وقدرتها على بلوغ النهاية ولا أدل على هذه الحقيقة من قول كارليل صاحب « الثورة الفرنسيه » فيه : « انه يستطيع أن يحرر هذه الدنيا ، وسيفعل ، ولربما حرر الآخرة أيضا » . ولم يكن ، أى بين ، يذهب مذهب جودوين فى القول بالتعليم طريقا الى احـراز الحرية ، فقد كان يرى هذا الطريق بطيئـا ، ويرى أن الحرية مثل النصر يمكن احرازها بالقوة ، قوة الهجوم الماضى العزم ويستشهد بقول لافاييت زميله : « لكى تجد الأمة الحرية ، يكفى لها أن تعرفها ، ولكى تكون حرة ، يكفيها أن تريدها » . أى أن تصمم على نيلها . لقد كان كتاب « حقوق الانســان » يقوم على جرأة التفكير وقوة الحجة ، حتى أن بت لم يجد سبيلا حيال صاحبه غير الأخذ بنظرية بيروك فى العدالة الجنائية ، يباشر أحكامها ضده . غير أن الرجل عمل بنصيحة صديقه الشاعر الانجليزى وليم بليك الذى قص عليه رؤية رآها له فى منامه ، تحكى بحث المسئولين عنه فى كل مكان . ففر الى فرنسـا ، وصدر عليه الحكم غيابيا بالخيانة العظمى ، ولكن الرجل

بقى على مبادئه لا يخونها أبدا الى آخر يوم من حياته • وفى فرنسا آزر بين الغاء الملكية ، وكانت شجاعته فى موقفه هذا شجاعة من يريد خدمة الانسانية لوجه الله لا يريد جزاء ولا شكورا ، كان يقول بالغاء النظام الملكى لا باعدام الملك ، فهو انما يسعى الى القضاء على شرعة الظلم التى نخر فيها سوس الزمن ، ولا يسعى الى تغذية المقصلة بطعام شهى جديد • ولا يتسع المقام هنا لذكر ما ترتب على هذا الأسلوب من التفكير أثناء حياته فى فرنسا ، وحسبى هنا ختام قصته فيها ، حين ساد الارهاب ، حتى جعل من الرحمة خيانة لا تغتفر ، فلقى دانتون حتفه • وتعرض بين للسجن توطئة لاعدامه • وكاد يساق الى المقصلة لولا أن شاء القدر الرحيم أن يسهو حارس زنزانته فيكتب العلامة المميزة لضحية المقصلة القادمة على بابه من الداخل لا من الخارج على مألوف العادة اذ ذاك ، ثم حمله البحر الى أمريكا ، ليقضى نحبه هناك بعد حين •

هذا هو بين ، ومن خلال سيرته لابد أن يكون القارىء قد ألم بموقفه من الثورة الفرنسية ومن غريمه الأكبر بيرك :

بين ونظريته السياسية :

ولئن بقى شىء جدير بالذكر عن بين ونشاطه الثورى الطابع ، فانما هو نظريته فى السياسة ، تلك النظرية

التي تقـــول : « ولد الانســـان حرا كما خلقه الله ، حرا مساويا ، وهذا ما يفترضه التنزيل والدين الطبيعي على حـد ســـواء » . وليس بيرك « الذى يخشى الله أو ينظر بعين الرهبـــة الى الملوك » و « بعـــين الواجب الى أولى الأمر » و « بعين الاحترام تجاه الاشراف » . وليس بيرك فى هذا كله فى نظره الا شخصا يقيم «متاهة من الحواجز والعـــوائق » بين المخلوق وخالقه . فالحقــوق الطبيعية قائمة في الانسان بحكم وجوده على هذه الأرض ، والحقوق المدنية مؤسسة على الحقـــوق الطبيعية ولا قصد لها غير تأمين تلك الحقوق . وما الحكومة التى تقوم من بين أفراد الشعب إلا حكومة قائمة على العقل والمنطق ، أما تلك التى « تنصب على الشــــعب » . فحـكومة الغزاة والطغاة أو الكنيسة ، وما تقـــوم حكومة حقا على أســـاس « العقد الاجتـــماعى » حتى « يجلس أهلهـا على نحـو ما يفعـل الأمريكيون ، وعلى نحو ما كان يفعـل الفرنسيون لوضع دستور على أساس حقــوق الانسان » . وفى ضوء هــذا الكلام ، وان صح القــول شــيئا خارج حـــدود الثورة الفرنسية ، تكون حكومة انجلترا أيام بين كما رآها هو ، حكومة فتـــح وغزو ، وكل كلام عن الدستور الانجليزى من قبيل اللعب بالألفاظ .

الثورة الفرنسية والشرق العربى

يحكى التاريخ أن أول لقاء للثورة الفرنســـية مع الشرق كان يوم هبطت الحملة الفرنسية أرض الفراعنة ،

يوم جاء نابليون الى مصر على رأس هذه الحملة « عدوا فى ثياب صديق » فقــد كان يعلن شــيئا ، ويبطن شيئا آخر • أعلن القــائد الفرنسى أنه انمـا أتى الينا يحمل أفكار الثورة الجديدة ، يريد أن ينقـل الينا حضارة لها خطرها • وكان قد دخل فى روع المصريين شيء من حقيقة هــذا الزيف اثر ما فعلته المدفعية الفرنسـية فى موقعة من أمر فانهم يواجهون شيئا جديدا فى الحيـاة لا بد أن الأهرام وغيرها بيد أنهم لم يلبثوا أن أدركوا أنه مهما يكن من أمر فانهم يواجهون شيئـا جــديدا فى الحياة لابد أن يحسبوا له حسابا كبيرا ، قال نابليون انه أتى ليرفع عن عقول القوم فى مصر غشاوة الجهالة الطويلة التى فرضها عليهم نظام الحكم التركى زمنا طويلا ، وليرفع عن كاهلهم عبء الاقطاع الذى حــرم الأهلين ثمرة العمل فى الأرض الطيبة منــذ وقت بعيد • قال هــذا وأيده فى نظر أهل البــلاد اذ ذاك العدد الضخم من العلماء والأدباء والفنانين الذين صحبوه الى مصر مع مطبعة عربية وأخرى أفرنجية • أما الذى كان يبطنه نابليــون ، فهو ما نعرفه جميعا من أنه انما أتى الى مصر لينتظر حتى « تنضج الكمثرى » • أولا ، كمـا سلف القول فيعود سلطانا لبلاده ، وليؤسس امبراطورية فرنســية فى الشرق وليقطــع على انجلترا طريقها الى درة التاج البريطانية ـ الهند ، وغير ذلك مما حققه البــحث التاريخى وفاضت بالحــديث فيه كتب التاريخ •

ونرى نحن أنه كان للثورة أثر بل فضل غير قليل

فى أكثر من ناحية • فهى قد نبهت الأذهان هنا الى ضرورة الأخذ بأسباب المعرفة ، فالتخلف لابد أن يورد القوم مورد الهلاك ، وها قد حلت بهم كارثة الاحتلال • ولا أدل على صحة هذا القول من نشاط حركة الترجمة والثبات الى فرنسا وغيرها من البلاد الأوربية ، وخاصة بعد زوال حكم الفرنسيين فى مصر • ومن منا لا يذكر « مدرسة الألسن » التى أنشئت عام ١٨٣٧ ، تلك المدرسة التى ساعدت كثيرا على نقل المعرفة الاوربية الى مصر ونشرها بين بنيها • وفضل آخر لا يمكن أن نغفله ـ أن وضع الفرنسيون مفتاح حضارتنا فى القديم فى أيدينا يوم كشف شامبليون سر اللغة الهيروغليفية على حجر رشيد • فلعل الحضارة المصرية القديمة لم تر النور ولم يقف أحد عليها فى أوج عظمتها الا بعد هذا الكشف العظيم • فالحركات الجديدة فى ميدان التنقيب عن الآثار المصرية لمعرفة حقائقها لا يمكن أن تنسى هذا الفضل الكبير وان يواره عن ذاكرتها مر الأيام • والقانون الفرنسى ـ هذا الفضل الباقى أيضا ، أخذ القانون المصرى عنه كثيرا ، ولا يكاد يغفل أثره أحد حتى أبناء هذا الجيل من دارسى القانون : وقل مثل ذلك فى نظم الحكم والنظم الاجتماعية وغير ذلك مما يتأبى على الحصر •

١ ـ دائرة المعارف البريطانية

٢ ـ دائرة المعارف الأمريكية

3 — Grant Temperly :
History of Europe in the Nineteenth Century.

4 — Hazlitt, W.
The Spirit of The Age.

5 — Brailsford, H.
Shelley, Godwin and their Circle

6 — Burke, E.
Reflection on the Revolution in France.

7 — Paine, T.
The Rights of Man.

8 — Carlyle, T.
The French Revolution

وطائفة من المقالات فى المجلات الادبية الغربية والعربية الى جانب الكتب المختلفة التى يشير اليها سياق الكلام عن الثورة فى فرنسا •

فهرس

المطبعة الثقافية

رقم الايداع بدار الكتب ٣٥٦٢/١٩٧١

وزارة الثقافة

الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر

المركز الرئيسي ١١١٧ شارع كورنيش النيل - القاهرة - ج.ع.م.
تليفون : ٧١٠٥٥ / ٧١٠٥٨ تلغرافياً : بانشرو

الادارة العامة للتوزيع ١٧ شارع قصر النيل - القاهرة - ج.ع.م
تليفون : ٤٥٥٨٩ / ٤٧٤٣٦

مكتبات القومية للتوزيع فى ج . ع . م .

القاهرة

٣٦ شارع شريف	ت : ٤٠٠١٢	١٩ شارع ٢٦ يوليو	ت : ٥٥٠٣٢
٥ ميدان عرابى	ت . ٤٦٣٨٣	٢٢ شارع الجمهورية	ت : ٩١٤٢٢٣
١٣ شارع المبتديان	ت . ٢١١٨٧	الباب الأخضر بالحسين	ت : ٩١٣٤٤٧

الاسكندرية : ٤٩ شارع سعد زغلول ٢٢٩٢٥ **الجيزة** : ١ ميدان الجيزة ت : ٨٩٨٣١١
دمنهور : شارع عبد السلام الشاذلى ٢٦٠٥ **المنيا** : شارع ابن خصيب ت : ٤٤٥٤
طنطا : ميدان الساعة ٢٥٩٤ **اسيوط** : شارع الجمهورية ت : ٢٠٣٢
المحلة الكبرى : ميدان المحطة ٤٢٧٧ **اسوان** : السوق السياحى ت : ٢٩٣٠
المنصورة : أول شارع الثورة ٣٨٦٤

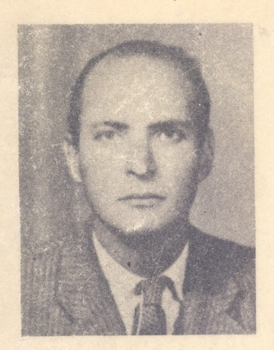
مراكز التوزيع خارج ج . ع . م

لبنان : الشركة القومية للتوزيع - بيروت - شارع سوريا بناية أبناء صمدى وصالحة
العراق : الشركة القومية للتوزيع - بغداد - ميدان التحرير - عمارة فاطمة

توكيلات وعملاء دائمين خارج ج . ع . م

الكويت . وكالة المطبوعات ٢٧ شارع فهد السالم بالكويت
الاردن : مكتبة المحتسب - عمان
ليبيا : محمود عارف الشويهدى - طرابلس
اندونيسيا : عبد الله محمد العيدروس - جاكرتا
تونس : الشركة التونسية للتوزيع ٥ شارع قرطاج - تونس
الجزائر . ٩٢ شارع ديدوش مراد بالجزائر العاصمة
المغرب : المركز الثقافى العربى للنشر والتوزيع ٤٢ - ٤٤ الشارع الملكى - الاحباس - الدار البيضاء
هولندا مكتبة بريل - ليدن

الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر
فى خدمة الثقافة العربية



احمد عصام الدين

- باحث ثقافى .
- عمل مترجما لمؤتمر الطيران لدول الشرق الأوسط عام ١٩٤٦ .
- وأمينا لمكتبة المركز الثقافى الدولى عام ١٩٤٧ .
- ومترجما لمجلة «عصر الطيران» عام ١٩٦٠
- له دراسات نشرت فى مجلات «الثقافة» و « القصة » و « المجلة » .
- ومن مترجماته المنشورة « أفكار تولستوى الحية » نشرته الدار القومية .



المكتبة الثقافية

(جامعة حرة)

- خلاصة الفكر القومى والإنسانى
- تجعل المعرفة متعة تعمق الشعور بالحياة ، وسلاحًا يساعد على الإنتصار فى معركة الحياة

يشرف على السلسلة

الدكتور شكرى محمد عياد